﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾

المنار

١٣١٥

﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾

قال عليه الصلاة والسلام : إن للإسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر ربيع الأول سنة ١٣٢٥ — آخره الأحد ١٢ مايو (أيار) سنة ١٩٠٧ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس من الدروس التي كان يلقيها في الأزهر مولانا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٣٣ : ٣٠) إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (٣٤) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم (٣٥ : ٣١) إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا ، فتقبل مني إنك أنت السميع العليم (٣٦) فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى — والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى — وإني سميتها مريم ، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم (٣٧ : ٣٢) فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

أقول سيأتي وجه الاتصال بين هذه الآيات وبين ماسبقهن من أول السورة في آخر تفسيرهن وأما وجه اتصالهن بما قبلهن فهو أنه لما بين سبحانه وتعالى ان محبته منوطة باتباع الرسول فمن اتبعه كان صادقا في دعوى حبه لله ، وجديرا بأن يكون محبوبا منه جل علاه ، اتبع ذلك ذكر من أحبهم واصطفاهم وجعل منهم الرسل الذين يبينون طريق محبته ، وهي الايمان به مع طاعته ، فقال (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) أي اختارهم وجعلهم صفوة العالمين وخيارهم بجعل النبوة والرسالة فيهم فآدم أول البشر ارتقاه الى هذه المرتبة فانه بعد ما تنقل في الاطوار وانتهى الى مرتبة التوبة والانابة اصطفاه تعالى واجتباه كما قال في سورة طه (٢٠: ١٢٢ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) فكان هاديا مهديا وكان في ذريته من النبيين والمرسلين من شاء الله تعالى . وأما نوح عليه السلام فقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم فانقرض من السلائل البشرية من انقرض ونجا هو وأهله في الفلك فكان بذلك أبا ثانيا للجم الغفير من البشر وكان هو نبيا مرسلا وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين ثم تفرقت ذريته وانتشرت وفشت فيهم الوثنية حتى ظهر فيهم ابراهيم عليه الصلاة والسلام نبيا مرسلا وخليلا مصطفى وتتابع النبيون والمرسلون من آله وذريته وكان ارفعهم قدرا وانبههم ذكرا آل عمران قبل ان تختم النبوة بولد اسماعيل عليهم الصلاة والسلام

(ذرية بعضها من بعض) قيل ان الذرية من مادة ذرأ المهموز أي خلق كما ان البرية من مادة برأ وقيل من مادة ذرو فأصلها ذروية وقيل هي من الذر وأصلها ذرية كقمرية قال الراغب والذرية أصلها الصغار من الاولاد وان كان قد يقع على الصغار والكبار معا في التعارف و يستعمل للواحد والجمع وأصله الجمع : وقال الاستاذ الامام: يقال ان لفظ الذرية قد يطلق على الوالدين والاولاد خلافا لعرف الفقهاء وهو قليل والمشهور ماجرى عليه الفقهاء وهو أن الذرية الاولاد فقط فقوله «بعضها من بعض» ظاهر على الأول ويحمل على الثاني بآل ابراهيم وآل عمران . ويصح ان يكون بمعنى انهم أشباه وأمثال في الخيرية والفضيلة التي هي أصل اصطفائهم على حد قوله تعالى (٩: ٦٧ والمنافقون والمنافقات بعضهم من

بعض) وهو استعمال معروف · أقول وهؤلاء الذين يشبه بعضهم بعضاً من هذه الذرية هم الانبياء والرسل قال تعالى في سياق الكلام على ابراهيم (٦: ٨٤ ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين ٨٥ وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين ٨٦ واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ٨٧ ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم)

﴿ والله سميع عليم إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني ، انك أنت السميع العليم ﴾ أي انه كان سبحانه وتعالى سميعاً لقول امرأة عمران عليما بنيتها في وقت مناجاتها إياه وهي حامل بنذر ما في بطنها له حال كونه محررا أي معتقاً من رق الاغيار لعبادته سبحانه وخدمة بيته أو مخلصاً لهذه العبادة والخدمة لا يشتغل بشيء آخر ، وثناؤها عليه تعالى عند هذه المناجاة بأنه السميع للدعاء ، العليم بما في أنفس الداعين والداعيات

قال الاستاذ الامام ورد ذكر عمران في علم الاسفار باسم رجلين فبعضهم يقول انهما واحد وهو أبو مريم ويستدل على ذلك بورودهما في سياق واحد وأكثرهم يقول ان الأول أبو موسى (عليه السلام) والثاني أبو مريم (عليها الرضوان) وبينهما نحو ألف وثمان مئة سنة تقريباً وذكر تفصيل ذلك على ما هو معروف عند اليهود قال والمسيحيون لا يعترفون بأن أبا مريم يدعى عمران ولا ضير في ذلك فانه لا يلزم ان تكون كل حقيقة معروفة عندهم وليس لهم سند لنسب المسيح يحتج به فهو كسلسلة الطريق عند المتصوفة يزعمون انها متصلة بعلي أو بالصديق وليس لهم في ذلك سند متصل يحتج بمثله · وأقول ان نسب المسيح في إنجيلي متى ولوقا مختلف ولو كتب عن علم لما وقع فيه الخلاف

(فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى) قالوا ان هذا خبر لا يقصد به الاخبار بل التحسر والتحزن والاعتذار فهو بمعنى الانشاء وذلك انها نذرت تحرير ما في بطنها لخدمة بيت الله والانقطاع لعبادته فيه والأنثى لا تصلح لذلك عادة لاسيما في أيام الحيض قال تعالى (والله أعلم بما وضعت) أي بمكانة الانثى التي

وضعتها وانها خير من كثير من الذكور ففيه دفع لما يوهمه قولها من خسة المولودة وانحطاطها عن مرتبة الذكور وقد بين ذلك بقوله (وليس الذكر) الذي طلبت أوتمنت (كالأنثى) التي وضعت بل هذه الانثى خير مما كانت ترجو من الذكر وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب (وضعتُ) بل انه من كلامها وعليه يكون المعنى وليس الذكر كالأنثى فيما يصلح له كل منهما

(واني سميتها مريم واني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) العوذ الالتجاء الى الغير والتعلق به فمعنى أعوذ بالله من الشيطان ألجأ اليه واعتصم بمنعه، وأعاذه بمنه جعله معاذاً له بمنعه ويعصمه منه والاعاذة بالله تكون بالدعاء والرجاء، والرجيم المطرود عن الخير - وفي حديث أبي هريرة عند الشيخين وغيرهما واللفظ هنا لمسلم « كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه الا مريم وابنها » وفسر البيضاوي المس هنا بالطمع في الاغواء - وقال الاستاذ الامام : اذا صح الحديث فهو من قبيل التمثيل لا من باب الحقيقة ولعل البيضاوي يرمي الى ذلك والحديث صحيح الاسناد بغير خلاف ويشهد له من وجه حديث شق الصدر وغسل القلب بعد استخراج حظ الشيطان منه وهو أظهر في التمثيل ولعل معناه انه لم يبق للشيطان نصيب من قلبه صلى الله عليه وسلم ولا بالوسوسة كما يدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في شيطانه « الا أن الله أعانني عليه فأسلم » رواه مسلم وفي رواية زيادة « فلا يأمر الا بخير »

فان قيل ان حديث استخراج حظ الشيطان منه ونحوه يدل على انه كان له حظ منه قبل ذلك وهذا ينافي قوله تعالى (١٥ : ٤٢ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) وهو صلى الله عليه وسلم صفوة عباده وخاتم رسله المصطفين الأخيار فان الآية تنفي سلطة الشيطان عن عباد الرحمن في كل آن . فالجواب ان الآية تنفي السلطان عليهم لا أصل الوسوسة فاذا وسوس الشيطان ولم تطع وسوسته لم يكن له سلطان ، ومعنى الحديث انه لم يعد له طريق الى الوسوسة ولا الى الأمر بالشر قط وهذه مرتبة عليا لا يرتقي اليها كل عباد الله وقد ذكر أهل الحديث من خصائصه صلى الله عليه وسلم إسلام شيطانه - وجملة القول ان الشيطان لم يكن له عليه سلطان ما ولكن كان له حظ وطمع فزال وغلبه نور النبوة حتى يئس وزال

حقه فلم يعد يأمر الاعجبر أو أسلم كما ورد

فان قيل ان ما فسر به البيضاوي حديث مريم وعيسى تقتضي ان يكونا أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممتازين عليه اذ كان يطمع فيه ولم يطمع فيهما وهذا ما يشاغب به دعاة النصرانية عوام المسلمين مستدلين بالحديث على تفضيل عيسى على محمد عليهما الصلاة والسلام أو على أنه فوق البشر . فالجواب أن كتاب هؤلاء الدعاة حجة عليهم في الفصل الرابع من انجيل مرقس ما نصه :

« أما يسوع فرجع من الاردن ممتلئا من الروح القدس وكان يقتاد بالروح في البرية ٢ أربعين يوما يجرب من ابليس ولم يأكل شيئا في تلك الايام ولما تمت جاع أخيرا ٣ وقال له ابليس إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزا ٤ فأجابه يسوع قائلا : مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة من الله ٥ ثم أصعده ابليس الى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان ٦ وقال له ابليس لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن لأنه إلي قد دفع وأنا أعطيه لمن أريد ٧ فان سجدت أمامي يكون لك الجميع ٨ فأجابه يسوع وقال « اذهب ياشيطان » انه مكتوب للرب إلٓهك تسجد وإياه وحده تعبد ٩ ثم جاء به الى أورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا الى أسفل ١٠ لأنه مكتوب انه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك ١١ وانهم على أياديهم يحملونك لكي لاتصدم بحجر رجلك ١٢ فأجاب يسوع وقال له انه قيل لاتجرب الرب إلٓهك ١٣ ولما أكمل ابليس كل تجربة فارقه الى حين » اه

فهذا صريح في أن ابليس كان يوسوس المسيح عليه السلام حتى يحمله ويأخذه من مكان الى مكان، وقصارى الأمر أنه لم يكن يطيعه فيما أمر به من السجود له ومن امتحان الرب إلٓهه (أي إلٓه المسيح) وقوله لاتجرب الرب إلٓهك يراد به ما ورد في سفر التثنية آخر أسفار التوراة (٦ : ١٦) ومثله قوله ليس بالخبز وحده يحيا الانسان وقوله للرب إلٓهك تسجد الخ وذلك مما يدل على أنه كان متبعا للتوراة .

هذا وقد تقدم تحقيق القول في الشيطان ووسوسته في سورة البقرة (١) والمحقق عندنا أنه ليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين ، وخيرهم الانبياء والمرسلون، وأما ماورد في حديث مريم وعيسى من أن الشيطان لم يمسهما وحديث إسلام شيطان النبي صلى الله عليه وسلم وحديث ازالة حظ الشيطان من قلبه فهو من الأخبار الظنية لانه من رواية الآحاد ولما كان موضوعها عالم الغيب والايمان بالغيب من قسم العقائد وهي لا يؤخذ فيها بالظن لقوله تعالى (ان الظن لا يغني من الحق شيئا) كنا غير مكلفين الايمان بمضمون تلك الاحاديث في عقائدنا وقال بعضهم يؤخذ فيها باحاديث الآحاد لمن صحت عنده ، ومذهب السلف في هذه الاحاديث تفويض العلم بكيفيتها الى الله تعالى فلا نتكلم في كيفية مس الشيطان ولا في كيفية إخراج حظه من القلب وانما نقول ان ما قاله الرسول حق وانه يدل على مزية لمريم وابنها ولنبي صلى الله عليهم وسلم لا يشاركهم فيها سواهم من عباد الله الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، وهذه المزية لا تقتضي وحدها أن يكون كل واحد منهم أفضل من سائر عباد الله المخلصين اذ قد يوجد في المفضول من المزايا مالا يوجد في الفاضل ، فليست مريم أفضل من ابراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام لان اختصاص الله إياهما بالنبوة والرسالة والخلة والتكليم يعلو كون الشيطان لم يمسها عند الولادة . على أن الحديث ورد في تفسير كونه تعالى تقبل من أمها إعاذتها وذريتها من الشيطان وهذه الإعاذة قد كانت بعد ولادتها والعلم بأنها أنثى وظاهر الحديث أن المس يكون عند الوضع والله ورسوله أعلم بمرادهما

﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن ﴾ أي تقبل مريم من أمها ورضي ان تكون محررة للانقطاع لعبادته وخدمة بيته وهو أبلغ من قبلها وزاده مبالغة وتأكيدا وصفه بالحسن كأنه قال فتقبلها ربها أبلغ قبول حسن (وأنبتها نباتا حسنا) أي رباها ونماها في جسمه ورزقه وعنايته وتوفيقه تربية حسنة شاملة الروح والجسد كما تربى الشجرة في الأرض الصالحة حتى تنمو وتثمر الثمرة الصالحة لا يفسد طيبتها شيء . ولعله عبر عن التربية بالانبات لبيان ان التربية فطرية لاشائبة فيها . ومن مباحث اللفظ ان القول

(١) راجع تفسير قصة آدم

مصدر «قبل» لا «تقبل» والنبات مصدر نبت لا أنبت ولكن العرب تخرج المصدر أحياناً على غير صيغة الفعل والشواهد على هذا كثيرة ﴿ وكفّلها زكريا ﴾ شدد الكوفيون من القراء الفاء وخففها الباقون والمعنى على الأولى وجعل زكريا كافلاً لها وعلى الثانية ظاهر وقرؤا زكريا بالقصر وبالمد ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب ﴾ وهو مقدم المصلى ويطلق على مقدم المجلس كما قال ابن جرير وقيل لا يسمى محراباً الا اذا كان يصعد اليه بالسلالم واقول المحراب هنا هو ما يعبر عنه أهل الكتاب بالمذبح وهو مقصورة في مقدم المعبد لها باب يصعد اليه بسلم ذي درجات قليلة ويكون من فيه محجوباً عمن في المعبد ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ قالوا كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف والله لم يقل ذلك ولا قاله رسوله صلى الله عليه وسلم ولا هو مما يعرف بالرأي ولم يثبته تاريخ يعتد به والروايات عن مفسري السلف متعارضة وفي أسانيدها مقال ومما قال ابن جرير في ذلك ان بني اسرائيل اصابتهم أزمة حتى ضعف زكريا عن حملها وأنهم اقترعوا على حملها فخرج السهم على نجارهم فكان يأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فينميه الله ويكثره فيدخل عليها زكريا فيجد عندها فضلاً من الرزق فاذا وجد ذلك ﴿ قال يامريم أنى لك هذا ﴾ أي من أين لك هذا والأيام أيام قحط ﴿ قالت هو من عند الله ﴾ رازق الناس بتسخير بعضهم لبعض ﴿ ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ولا توقع من المرزوق أو رزقاً واسعاً (راجع آية ٢٧) وأنت ترى انه لا دليل في الآية على أن الرزق كان من خوارق العادات واسناد المؤمنين الأمر الى الله في مثل هذا المقام معهود في القديم والحديث . قال الاستاذ الامام ماشاء الله مبسوطاً : ان القرآن نزل سائغاً يسهل على كل أحد فهمه من غير حاجة الى عناء ولا ذهاب في الدفاع عن شيء . خلاف الظاهر فعلينا ان لا نخرج عن سننه ولا نضيف اليه حكايات اسرائيلية أو غير اسرائيلية لجعل هذه القصة من خوارق العادات (١) والبحث عن ذلك الرزق ماهو ومن أين جاء فضول لا يحتاج اليه لفهم المعنى ولا لمزيد العبرة ولو علم الله ان في بيانه خيراً لبينه

(١) راجع مقالات (الكرامات المأثورة) في المجلد الثاني من المنار

اما ماسيقت القصة لأجله وهو الذي يجب أن نبحث فيه ، ونستخرج العبر من قوادمه وخوافيه ، فهو تقرير نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ودحض شبه أهل الكتاب الذين احتكروا فضل الله وجعلوه خاصا بشعب اسرائيل وشبهة المشركين الذين كانوا ينكرون نبوته لأنه بشر . وبيان ذلك أن المقصد الأول من مقاصد الوحي تقرير عقيدة الألوهية وأهم مسائلها مسألة الوحدانية وتقرير عقيدة البعث والجزاء وعقيدة الوحي والانبياء وقد افتتحت السورة بذكر التوحيد وانزال الكتاب ثم كانت الآيات من أولها الى هذه القصة أو قبيل هذه القصة في الالوهية والجزاء بعد البعث بالتفصيل وازالة الشبهات والاوهام في ذلك ثم بين ان الايمان بالله وادعاء حبه ورجاء النجاة في الآخرة والفوز بالسعادة فيها انما تكون باتباع رسوله وقفى على ذلك بهذه القصة التي تزيل شبه المشركين وأهل الكتاب في رسالته وتردها على وجوههم

رد عليهم بما يعرفونه من أن آدم أبا البشر وان الله اصطفاه بجعله أفضل من كل أنواع الخيرات وتكثير من ذريته من ... وهذا متفق عليه بين المشركين وأهل الكتاب ومن اصطفاء نوح وجعله أبا البشر الثاني وجعل ذريته هم الباقين ومن اصطفاء ابراهيم وآله على البشر فان العرب وأهل الكتاب كانوا يعرفون ذلك فالاولون يفتخرون بأنهم من ولد اسماعيل وعلى ملة ابراهيم كما يفتخر الآخرون باصطفاء آل عمران من بني اسرائيل حفيد ابراهيم . فالله سبحانه وتعالى يرشد هؤلاء وأولئك وجميع البشر الى أنه هو الذي اصطفى هؤلاء بغير مزية سبقت منهم تقتضي ذلك وتوجبه عليه فاذا كان الامر له في اصطفاء من يشاء من عباده وبذلك اصطفى هؤلاء على عالمي زمانهم فما المانع له من اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على العالمين كما اصطفى أولئك ، لامانع يمنع ذلك عند من يعقل فان قيل انه لم يعهد أن بعث نبيا من غير بني اسرائيل بعد وجودهم قلنا ولم اصطفى بني اسرائيل عند وجودهم أليس ذلك بمحض مشيئته ؟ بلى وبمحض مشيئته اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم . فهذه المثل مسوقة لبيان أنه تعالى يصطفي من خلقه من يشاء اما الدليل على كونه شاء اصطفاءه فاصطفاه بالفعل فهو أنه اصطفاه

بالفعل اذ جعله هاديا للناس مخرجا لهم من ظلمات الشرك والجهل والفساد ، الى نور الحق الجامع للتوحيد والعلم والصلاح ، ولم يكن أثر غيره من آل ابراهيم وآل عمران في الهداية بأظهر من أثره بل اثره أظهر، ونوره أسطع ، صلى الله عليه وعلى كل عبد مصطفى

ومن هذه المثل قصة مريم فان أمها اذا كانت قد ولدتها وهي عاقر على خلاف المعهود كما نقل أو اذا كان قبول الانثى محررة لخدمة بيت الله على خلاف المعهود عندهم وقد تقبله الله فلماذا لايجوز ان يرسل الله محمدا من غير بني اسرائيل على خلاف المعهود عندهم ؟ ومثل هذا يقال في قصة زكريا عليه السلام الآتية ومن ذلك كله يعلم أن أعماله تعالى لاتأتي دائما على مايعهد الناس و يألفون

(٣٨ : ٣٣) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩ : ٣٤) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٤٠ : ٣٥) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ؟ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤١ : ٣٦) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَنْ لَا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ •

قوله تعالى (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء) معناه أنه عندما رأى زكريا حسن حال مريم ومعرفتها بالله واضافتها الاشياء اليه دعا ربه متمنيا لو يكون له ولد صالح مثلها هبة من لدنه تعالى ومن محض فضله (وقد تقدم الكلام في تفسير لدن ولدى) وقد فسر بعضهم «هنالك» بالزمان قال الاستاذ الامام: وهو ضعيف والاستعمال الفصيح فيها انها للمكان أي في ذلك المكان الذي خاطبته فيه مريم بما ذكر دعا ربه، ورؤية الاولاد النجباء تشوق نفس القارئ، وتهيج عنيه لو يكون له مثلهم. وذهب المفسر (الجلال) كغيره الى أن الذي

بعث زكريا الى الدعاء هو رؤيته فاكهة الصيف في الشتاء وعكسه فان ذلك من قبيل مجيء الولد من الشيخ الكبير والمرأة العاقر وليس في الآية مايدل عليه ، وقد يعترض عليه بأن فيه اشعارا بأن زكريا لم يكن قبل ذلك عالما بامكان الخوارق ولا يقول بهذا مؤمن بنبوته . فان قيل ان تعجبه بعد بقوله « رب أنى يكون لي غلام » قد يشعر بشيء من ذلك فالجواب إن هذا يؤيد امتناع ان تكون رؤية الخوارق هي التي أثارت في نفسه هذا الدعاء ، وقد قال الاستاذ الامام في معنى هذا الدعاء وهذا التعجب من استجابته أحسن قول وها كه بالمعنى مع شيء من التصرف : ان زكريا لما رأى مارآه من نعمة الله على مريم في كال إيمانها وحسن حالها ولا سيما اختراق شعاع بصيرتها لحجب الاسباب ورؤيتها ان المسخر لها هو الذي يرزق من يشاء بغير حساب ، أخذ عن نفسه ، وغاب عن حسه ، وانصرف عن العالم وما فيه واستغرق قلبه في ملاحظة فضل الله ورحمته ، فنطق بهذا الدعاء في حال غيبته ، وانما يكون الدعاء جديرا بأن يستجاب اذا جرى به اللسان بتلقين القلب في حال استغراقه في الشعور بكمال الرب ، والعائد من سفره في عالم الوحدة ، الى عالم الاسباب ومقام التفرقة ، وقد أوذن بسماع ندائه ، واستجابة دعائه ، سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة ، وهي على غير السنة الكونية فأجابه بما أجابه وذلك قوله عز وجل

(فنادته الملائكة) قرأ حمزة والكسائي فناداه الملائكة بالتذكير والامالة والباقون فنادته بتاء التأنيث أي جماعة الملائكة والعرب تؤنث وتذكر المسند الى جمع المذكور الظاهر لاسيما اذا كان في لفظه تا كالطلحات . ورسم المصحف يتفق مع القراءتين لأنه رسم فيه بالياء غير منقوطة هكذا « فنادته » ومن سنته رسم الألف الممالة ياء لأنها منقلبة عنها . وجمهور المفسرين يقولون ان المراد بالملائكة جبريل ملك الوحي وقالوا ان العرب تخبر عن الواحد بلفظ الجمع تريد به الجنس . قال ابن جرير يقال خرج فلان على بغال البريد وانما ركب بغلا واحدا وركب السفن وانما ركب سفينة واحدة وكما يقال ممن سمعت هذا الخبر فيقال من الناس وانما سمعه من رجل واحد وقد قيل ان منه « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم »

والقائل كان فيما ذكروا واحداً . ثم قال بعد ذلك وأما الصواب من القول في تأويله فان يقال ان الله جل ثناؤه أخبر ان الملائكة نادته والظاهر من ذلك أنها جماعة الملائكة دون الواحد وجبريل واحد فلن يجوز ان يحمل تأويل القرآن الاعلى الأظهر الأكثر من الكلام المستعمل في ألسن العرب دون الأقل ما وجد الى ذلك سبيل، ولم تضطرنا حاجة الى صرف ذلك الى أنه بمعنى واحد فيحتاج له الى طلب المخرج بالخفي من الكلام والمعاني وبما قلنا في ذلك من التأويل قال جماعة من أهل العلم منهم قتادة والربيع بن أنس وعكرمة ومجاهد وجماعة غيرهم : اه

اما قوله (وهو قائم يصلي في المحراب) فالظاهر من معناه المتبادر عندي أنه نودي وهو قائم يدعو بذلك الدعاء الذي ذكر هنا مختصرا وذكر في سورة مريم بأطول مما هنا فالصلاة دعاء والدعاء صلاة وقد عطف « فنادته الملائكة » على ما قبله بالفاء وحكاية ما قبله صريحة في كون الدعاء وقع في المحراب الذي كانت مريم فيه . فقول الرازي ان الآية تدل على أن الصلاة مشروعة عندهم غريب جداً وأي دين لا صلاة فيه ولا دعاء (أن الله يبشرك بيحيى) أي بولد اسمه يحيى كما في سورة مريم « انا نبشرك بغلام اسمه يحيى » قرأ ابن عامر وحمزة إن بكسر الهمزة لان النداء قول، والباقون بفتحها على تقدير الباء أي نادته بأن الله يبشره وفيه اشعار بأن البشارة محكية بالمعنى لا باللفظ فما هنا لا ينافي ما في سورة مريم من التفصيل . قرأ حمزة والكسائي يبشرك كينصرك والباقون بالتشديد . ويحيى تعريب لكلمة « يوحنا » في لغة بني اسرائيل وهي من مادة الحياة فالاسم يشعر بأنه يحيا حياة طيبة بأن يكون وارثا لوالده ومن آل يعقوب ما كان فيهم من النبوة والفضل . وقد وصف تعالى هذا المبشر به بعدة صفات وردت حالا منه وهي قوله (مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين) اما تصديقه بكلمة من الله فهو تصديقه بعيسى الذي بشر الله به بكلمة منه او الذي يولد بكلمة الله « كن » فيكون أي بغير السنة العامة في توالد البشر وهي ان يولد الولد بين أب وأم . وقال أبو عبيدة أي المراد بالكلمة هنا الكتاب أو الوحي لأن الكلمة تطلق على الكلام وان كان كثيراً، وقيل غير ذلك . وأما السيد فهو من يسود في قومه بالعلم أو الكرم

أو الصلاح وعمل الخير . والحصور وصف مبالغة من مادة الحصر ومعناها الحبس فهو من يحبس نفسه ويمنعها عما ينافي الفضل والكمال اللائق بها . ويطلق على الكتوم للاسرار وعلى من يمتنع من النساء للعنة أو لعفة وأكثر المفسرين على ان هذا الأخير هو المراد هنا ولذلك بحثوا في كون ترك التزوج أفضل من فعله أم لا وقال الرازي : احتج أصحابنا بهذه الآية على أن ترك النكاح أفضل ، ونقول ان الآية ليست نصا ولا ظاهرة في ذلك،واذا سلمنا أنها تدل عليه فلا نسلم انها تدل على أن ترك التزوج أفضل مطلقا وليس يحيى بأفضل من أبيه ولا من ابراهيم الخليل ومحمد خاتم النبيين والمرسلين وسنة النكاح أفضل سنن الفطرة لأنها قوام هذه الحياة الدنيا وسبب بقاء الانسان الذي كرمه الله وخلقه في أحسن تقويم وجعله خليفة في الارض الى الاجل المسمى في علم الله . ومعنى كونه نبيا معروف وأما كونه من الصالحين فمعناه انه من الانبياء الصالحين او من القوم الصالحين وهم أهل بيته

(قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر) قالوا ان السؤال للتعجب وأكثروا في ذلك السؤال والجواب ونقلنا قول الاستاذ الامام في ذلك وهو أفضل ما قيل فيه ولبعضهم كلام في المسألة لايليق بمقام الأنبياء عليهم السلام . ولا يمنع مانع ما أن يكون الاستفهام على ظاهره وان يكون قد قاله تشوقا إلى معرفة الكيفية التي يكون بها الانتاج مع عدم توفر الأسباب العادية له بكبر سنه وعقر زوجه (قال) تعالى والظاهر انه بواسطة الملائكة (كذلك الله يفعل مايشاء) فانه متى شاء أمرا أوجد له سببه أوخلقه بغير الأسباب المعروفة لايحول دون مشيئته شيء . فعليك أن تفوض الأمر اليه في هذه الكيفية

(قال رب اجعل لي آية) أي علامة تتقدم هذه العناية وتؤذن بها . ومن سخافات بعض المفسرين التي أو ما أمالها آنفا زعمهم ان زكريا عليه السلام اشتبه عليه وحي الملائكة ونداؤهم بوحي الشياطين ولذلك سأل سؤال التعجب ، ثم طلب آية للتثبت.وروى ابن جرير عن السدي وعكرمة ان الشيطان هو الذي شككه في نداء الملائكة وقال له انه من الشيطان . ولولا الجنون بالروايات مهما هزلت

وسمجت لما كان لمؤمن ان يكتب مثل هذا الهزء والسخف الذي ينبذه العقل وليس في الكتاب ما يشير اليه ولو لم يكن لمن يروي مثل هذا الا هذا لكفى في جرحه وأن يضرب بروايته على وجهه قبحا الله عن ابن جرير ادخيل هذه الرواية عما ينشر (قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا) قيل معناه أن تعجز عن خطاب الناس بحصر يعتري لسانك اذا أردته ويرجحه ان الآية تكون بغير المعتاد وقيل معناه ان تترك ذلك مختارا لتفرغ لعبادة الله ويؤيده قوله (واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والابكار) والمشهور الاول وللمفسرين روايات سقيمة فيه منها ان هذه الآية عقوبة عاقبه الله تعالى بها أن طلب الآية بعد تبشير الملائكة ومنها أن لسانه ربا فيه حتى ملأه ومثل هذا السخف لا يجوز ذكره الا لأجل رده على قائله وضرب وجهه به - وفي انجيل لوقا ان جبريل قال لزكريا ١: ٢٠ وها أنت تكون صامتا ولا تقدر ان تتكلم الى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته » وقال الاستاذ الامام : الصواب ان زكريا أحب بمقتضى الطبيعة البشرية [illegible] تلك المنحة الآلهية ليطمئن قلبه ويبشر أهله فسأل عن الكيفية ولما أجيب بما أجيب به سأل ربه أن يخصه بعبادة يتعجل بها شكره ويكون إعلامه إياها آية وعلامة على حصول المقصود فأمره بأن لا يكلم الناس ثلاثة أيام بل ينقطع للذكر والتسبيح مساء صباح بمدة ثلاثة أيام فاذا احتيج الى خطاب الناس أومأ اليهم إيماء وعلى هذا تكون بشارته لأهله بعد مضي الثلاث الليال . واختلفوا في الرمز هل كان بالقول الخفي وتحريك الشفتين أم بغيرهما من الاعضاء كالعينين والحاجبين والرأس واليدين لان الرمز والايماء يكون بكل ذلك . والعشي من الزوال الى الغروب وقيل من الغروب الى ذهاب صدر من الليل وقال الراغب من زوال الشمس الى الصباح . والابكار من الصباح الى الضحى

(٤٢ : ٣٧) وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٣ : ٣٨) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ •

قوله تعالى (وإذ قالت الملائكة) معطوف على قوله « اذ قالت امرأة عمران » متعلق بقوله قبله « والله سميع عليم » وهذا الخطاب ليس بشرع خصت به وإنما هو إلهام بمكانتها عند الله وبما يجب عليها من الشكر له بدوام القنوت والصلاة ومن اعتقد انه مكرم اجتهد في المحافظة على كرامته وتباعد أشد التباعد عن كل ما ينقص منها فقول الملائكة لها (ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) قد زادها بمقتضى سنة الفطرة تعلقاً بالكمال كما زادها روحانية بتأثير تلك الأرواح الطيبة التي أمدت روحها الطاهرة . والاصطفاء الأول هو قبولها محررة لخدمة الله في بيته وكان ذلك خاصاً بالرجال والتطهير قد فسر بعدم الحيض وبذلك كانت أهلا لملازمة المحراب وهو أشرف مكان في المعبد . وروي ان السيدة فاطمة الزهراء ما كانت تحيض وانها لذلك لقبت بالزهراء . وقال الجلال أنه التطهير من مسيس الرجال واختار الاستاذ الامام حمله على ما هو أعم من هذا وذاك أي طهرك مما يستقبح كسفساف الأخلاق وذميم الصفات وغير ذلك . والاصطفاء الثاني ما اختصت به من خطاب الملائكة وكلام الهداية . وقال الاستاذ الامام هو جعلها تلد نبياً من غير أن يمسها رجل فهو على هذا اصطفاء لم يكن قد تحقق بالفعل بل بالاعداد والتهيئة . وبحثوا هنا في قوله « على نساء العالمين » هل المراد به عالمو زمانها كما يقال أرسطو أعظم الفلاسفة ويفهم منه فلاسفة زمانه أو أنه أم جميع العالمين . وفي الأحاديث ان أفضل النساء مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ورضي عنهن

(يامريم اقنتي لربك) أي الزمي طاعته مع الخضوع له (واسجدي واركعي مع الراكعين) السجود التطامن والتذلل، والركوع الانحناء ويستعمل في لازمه وسببه وهو التواضع والخشوع في العبادة أو غيرها . وركوعها مع الراكعين عبارة عن صلاتها مع المصلين في المعبد وقد كانت ملازمة لمحرابه كما تقدم . وقد أطلق الركوع والسجود في صلاتنا على العمل المعلوم وهو استعمال للفظ في حقيقته ومجازه اذ الدين يطالبنا بالخشوع واستشعار التواضع في هذا الانحناء والتطامن ولم تكن صلاة اليهود كصلاتنا في أعمالها وصورتها ولكنهم طولبوا فيها بمثل ما طولبنا من

الخشوع والتذلل لله تعالى

(ذلك) الذي قصصناه عليك يا محمد من اخبار مريم وزكريا (من أنباء الغيب) لم تشهده انت ولا أحد من قومك ولم تطلع على شيء منه في الكتاب وانما نحن (نوحيه اليك) بانزال الروح الامين الذي خاطب مريم وزكريا بما خاطبهما به على قلبك وإلقائه في روعك خبر ما وقع بين بني اسرائيل في ذلك وغير ذلك . فضمير نوحيه راجع الى الغيب (وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم) أي قداحهم المبرية فالسهام الازلام التي يضربون بها القرعة ويقامرون تسمى أقلاما (أيهم يكفل مريم) أي يستهمون بهذه الاقلام ويقترعون على كفالة مريم حتى قرعهم زكريا فكان كافلها (وما كنت لديهم اذ يختصمون) في ذلك ولم يتفقوا على كفالتها الا بعد القرعة

قال الاستاذ الامام: أعقب هذه القصة بهذه الآية الناطقة بأنها من أنباء الغيب وأخر خبر القاء الاقلام لكفالة مريم وذكره في سياق نفي حضور النبي صلى الله عليه وسلم مجلس القوم وشهود ما جرى بينهم ولابد لهذه العناية من نكتة وقد قالوا في بيانها إن كونه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ أخبار القوم ولم يروها سماعا عن احد معلوم عند منكري نبوته فلم يبق له طريق لعلم بها الا مشاهدتها فنفاها تهكما بهم وبذلك تبين انه لم يبق له طريق لمعرفتها الا الوحي الله تعالى اليه بها . وهذا الجواب منقوض وان اتفق عليه من نعرف من المفسرين وذلك ان القرآن نطق بأنهم قالوا (١٦: ١٠٣ انما يعلمه بشر) و(٢٥: ٥ قالوا اساطير الاولين اكتتبها) قال والصواب أن النكتة في النص على نفي حضور النبي القوم اذ يلقون أقلامهم أي بعد النص على كون القصة من أنباء الغيب هي أن هذه المسألة لم تكن معلومة عند أهل الكتاب فيكون للمنكرين شبهة على انه أخذها منهم . أقول ويرد على هذا قوله تعالى في آخر قصة يوسف (١٢: ١٠٢ ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) واذا كان بعض الجاحدين قد ادعوا انه يعلمه بشر فهذه الدعوى قد ردها القرآن بقوله (لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) وورد انهم قالوا هذا اذ رأوه يقف على قين (حداد) رومي

بمكة وذلك القين لم يكن يحسن العربية وأن القين بمثل هذا العلم يعرف العربية أم لم يعرفها . فالقرآن لا يحتمل ذلك الشبهة إذ الأمي الناشيء بين الأميين لا يمكن أن يتلقى أخبار الأولين من حداد ولا من عالم كحبر أو راهب بمجرد رؤيته عليه أو اجتماعه به ولو أمكن ذلك عادة أو عقلا لما كان لعاقل أن يثق بحفظ ذلك القين أو غير القين وبأمانته في النقل ولا يختلف أحد من المنكرين لنبوته صلى الله عليه وسلم في كمال عقله وسمو ادراكه وفطنته . ولا شك في ان اتيانه في هذه القصص بما لا يعرفه أهل الكتاب مما يؤكد دفع تلك الشبهة الواهية ويدعم ذلك الاصل الراسخ وهو كونه صلى الله عليه وسلم أميا نشأ بين أميين لا علم لهم بأخبار الأنبياء مع أممهم كما قال في سورة هود بعد ذكر قصة نوح عليه السلام (١١ : ٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وقد سمع كفار قريش هذه الآية وسائر سورتها ولم يقل أحد منهم بل كنا نعلمها . ومثل هذا قوله بعد ذكر قصة موسى وشعيب في سورة القصص (٢٨ : ٤٤ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا الى موسى الأمر) الى آخر الآيات الثلاث

أما الجاحدون من أهل الكتاب لا سيما دعاة النصرانية في هذا الزمان فهم يقولون فيما وافق القرآن به كتبهم انه مأخوذ منها بدليل موافقته لها وفيما خالفها انه غير صحيح بدليل انه خالفها وفيما لم يوافقها ولم يخالفها به انه غير صحيح لانه لم يوجد عندنا وهذا منتهى ما يكابر به مناظر مناظرا وأبطل ما يرد به خصم على خصم . ويقول المسلمون اننا نحتج على ان ما جاء به القرآن هو الحق بما قام من الادلة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم مع حفظ كتابه ونقله بالتواتر الصحيح ومن تلك الدلائل التي يشتمل عليها القرآن معرفة قصص الانبياء مع كونه أميا لم يتعلم شيئا كما تقدم فهي دليل على صحة نفسها وما جاء فيها مخالفا لما في الكتب السابقة نعده مصححا لما وقع فيها من الغلط والنسيان بانقطاع أسانيدها حتى أن أعظمها وأشهرها كالاسفار المنسوبة الى موسى عليه السلام لا يعرف كاتبها ولا زمن كتابتها ولا اللغة التي كتبت بها أولا . وقد تقدم الإلماع الى ذلك من قبل

(٤٥ : ٤٠) إِذْ قَالَتِ الْمَلَٰئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٦ : ٤١) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّٰلِحِينَ (٤٧ : ٤٢) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٨ : ٤٣) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ، وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩ : ٤٤) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠ : ٤٥) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ •

قوله تعالى ﴿ إذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ شروع في خبر عيسى نفسه بعد قصة أمه وقصة زكريا عليهم السلام وهو بدل من قوله « واذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك » وما بينهما اعتراض ناطق بحكمة نزول الآيات مبين وجه دلالتها على صدق من أنزلت عليه . والمعنى أن الملائكة بشرت مريم بالولد الصالح حين بشرتها باصطفاء الله اياها وتطهيره لها وأمرتها بمزيد عبادته والاستغراق في شكره . والمراد بالملائكة هنا الروح جبريل لقوله تعالى في سورة مريم (١٩ : ١٧ ، فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) الخ الآيات وذكر بلفظ الجمع لما تقدم في قصة زكريا أولا ، كان

معه غيره · وفي لفظ « كلة » أربعة وجوه (أحدها) ان المراد بالكلمة كلمة التكوين لا كلمة الوحي · ذلك انه لما كان أمر الخلق والتكوين وكيفية صدوره من الباري عز وجل مما يعلوعقول البشر عبر عنه سبحانه بقوله (٣٦ : ٨٢ إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فكلمة « كن » هي كلمة التكوين وسيأتي تفسيرها · وهنا يقال ان كل شيء قدخلق بكلمة التكوين فما ذاخص المسيح باطلاق الكلمة عليه وأجيب عن ذلك بأن الاشياء تنسب في العادة والعرف العام في البشر الى أسبابها ولما فقد في تكوين المسيح وعلوق أمه به ما جعله الله سببا للعلوق وهو تلقيح ماء الرجل لما في الرحم من البيوض التي يتكون منها الجنين أضيف هذا التكوين الى كلمة الله وأطلقت الكلمة على المكون إيذانا بذلك · أو جعل كأنه نفس الكلمة مبالغة · وهذا هو الوجه المشهور

(الوجه الثاني) انه أطلق على المسيح للاشارة الى بشارة الأنبياء به فهو قد عرف بكلمة الله أي بوحيه لأنبيائه · قاله الاستاذ الامام والكلمة تطلق على الكلام كقوله (٣٧ : ١٧١ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) الخ

(الوجه الثالث) انه أطلق عليه لفظ الكلمة لأنه جاء بإيضاح لكلام الله الذي حرفه قومه اليهود حتى اخرجوه عن وجهه وجعلوا الدين ماديا محضا · قاله الرازي وجعله من قبيل وصف الناس السلطان العادل بظل الله ونور الله لما انه سبب لظهور ظل العدل ونور الاحسان قال فكذلك كان عيسى سببا لظهور كلام الله عز وجل بسبب كثرة بياناته له وازالة الشبهات والتحريفات عنه

(الوجه الرابع) ان المراد بالكلمة كلمة البشارة لا من قوله بكلمة منه معناه بخبر من عنده او بشارة وهو كقول القائل ألقى الي فلان كلمة سرني بها بمعنى أخبرني خبرا فرحت به قاله ابن جرير واستشهد له بقوله (وكلمته ألقاها الى مريم) يعني بشرى الله مريم بعيسى ألقاها اليها قال فتأويل القول وما كنت يا محمد عند القوم اذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك ببشرى من عنده هي ولد لك اسمه المسيح عيسى بن مريم ثم قال مستدلا على هذا مانصه : ولذلك قال عز وجل اسمه المسيح فذكر ولم يقل اسمها فيؤنث والكلمة مؤنثة لأن الكلمة غير مقصود بها قصد الاسم

الذي هو بمعنى فلان وإنما هي بمعنى البشارة فذكرت كنايتها كما تذكر كناية الدرية والداية والألقاب الخ ما أطال به في المسألة من جهة العربية

أما لفظ المسيح فمعرب وأصله العبراني مشيحا بالمعجمة ومعناه الممسوح وهو لقب الملك عندهم لما مضت به تقاليدهم من مسح الكاهن كل من يتولى الملك بالدهن المقدس وهم يعبرون عن تولية الملك بالمسح وعن الملك بالمسيح وقد اشتهر ان أنبياءهم بشروهم بمسيح يظهر فيهم وأنهم كانوا يعتقدون أنه ملك يعيد اليهم مافقدوا من السلطان في الأرض فلما ظهر عيسى عليه السلام وسمي بالمسيح آمن به قوم وقالوا انه هو الذي بشر به الأنبياء ولايزال سائر اليهود يعتقدون ان البشارة لما يأت تأويلها وأنه لابد ان يظهر فيهم ملك . وقد بين الاستاذ الامام معنى صدق لفظ المسيح على عيسى عليه السلام بحسب عرفهم فقال: ان الناس إنما يولون الملك عليهم لأجل تقرير العدل فيهم ورفع أثقال الظلم عنهم وقد فعل المسيح ذلك فان اليهود كانوا عند بعثته فيهم متمسكين بظواهر ألفاظ الكتاب وخاضعين لأفهام الكتبة والفريسيين واوهامهم حتى أرهقهم ذلك عسرا وتركهم يئنون من الظلم وأثقال التكاليف فرفع المسيح ذلك عنهم بإرجاعهم الى مقاصد الدين وحملهم على الاخوة الرافعة للظلم . أقول وقد نقلوا عنه ما يفيد هذا المعنى وهو أن مملكته روحانية لاجسدية وقد لاح لي عند الكتابة أن قوله تعالى « اسمه المسيح عيسى » يراد به ان لفظ المسيح هنا أجري مجرى العلم لا مجرى الوصف والعلم المشتق لايشترط فيه ان يكون مسماه متصفا بالمعنى الذي يدل عليه اذا استعمل وصفا اذ وضعت لفظ « علي » علما على رجل يصير مدلوله شخص ذلك الرجل سواء كان ذا علو ام لا واذا سميت ابنتك « ملكة » لم يكن لأحد أن يفسر اللفظ بالمعنى الذي وضع له اللفظ قبل العلمية وقد يجوز ان يلمح المعنى الذي ينقل لفظه الى العلمية أحيانا . وقد ذكر المفسرون بضعة وجوه لتفسير لفظ المسيح بناء على انه مشتق من المسح ولا حاجة الى ذكر شيء منها

واما لفظ عيسى فهو معرب يشوع بقلب الحروف بعد جعل المعجمة مهملة وهذا يكثر في المنقول من العبرانية الى العربية فسين المسيح وموسى شين في

العبرانية وكذلك سين شمس فهي عندهم بمعجمتين وانما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها إعلاما لها بأنه ينسب اليها لانه ليس له أب ولذلك قالت بعد البشارة « رب أنى يكون لي ولد » الخ

وقوله تعالى في وصفه (وجيها في الدنيا والآخرة) معناه أنه يكون ذا وجاهة وكرامة في الدارين فالوجيه ذو الجاه والوجاهة والمادة مأخوذة من الوجه حتى قالوا ان لفظ الجاه اصله وجه فنقلت الواو الى موضع العين فقلبت ألفا ثم اشتقوا منه فقالوا جاه فلان يجوه كما قالوا وجه يوجه وذو الجاه يسمى وجيها كما يسمى وجيها ويقال ان لفلان وجها عند السلطان كما يقال ان له جاها ووجاهة وكأن الأصل في الوجيه من يعظم ويحترم عند المواجهة لما له من المكانة في النفوس وقال الامام الغزالي : الجاه ملك القلوب . قال الاستاذ الامام : إن كون المسيح ذا جاه ومكانة في الآخرة فظاهر وأما وجاهته في الدنيا فهي قد تكون موضع الشكال لما عرف من امتهان اليهود له ومطاردتهم اياه على فقره وضعف عصبيته والجواب عن ذلك [illegible] كانت له مكانة في القلوب واحترام ثابت في النفوس ولا يكون أحد كذلك حتى يكون له أثر حقيقي ثابت من شأنه أن يدوم بعده زمنا طويلا أوغير طويل ولا ينكر أحد ان منزلة المسيح في نفوس المؤمنين به كانت عظيمة جدا وان ماجاء به من الاصلاح هو من الحق الثابت وقد بقي آثره بعده فهذه الوجاهة اعلى وأرفع من وجاهة الأمراء والملوك الذين يحترمون في الظاهر لظلمهم واتقاء شرهم اولدهائهم والتزلف اليهم رجاء الانتفاع بشيء مما في أيديهم من عرض الحياة الدنيا لأن هذه وجاهة صورية لا أثر لها في النفوس إلا الكراهة والبغض والانتقاص وتلك وجاهة حقيقية مستحوذة على القلوب . وحقيقة الوجاهة في الآخرة هي ان يكون الوجيه في مكان علي ومنزلة رفيعة يراه الناس فيها فيجلونه ويعلمون انه مقرب من الله تعالى ولا يمكننا ان نحددها ونعرف بماذا تكون . قال قائل في الدرس : ان هذه الوجاهة تكون بالشفاعة ، فقال الاستاذ الامام : ان الآية لم تبين ذلك على انكم تقولون ان هذه الشفاعة عامة لكل نبي وعالم وصالح لم يبق مزية للمسيح إذن ، ولما كانت الوجاهة

متعلقة بالناس وما يعود من مطارح انظارهم على شعور قلوبهم وخطرات أفكارهم قال تعالى فيه ﴿ ومن المقربين ﴾ أي هو مع ذلك من عباد الله المقربين اليه عز وجل فما ينعكس عن انظار الناظرين اليه هناك الى مرايا قلوبهم حقيقي في نفسه

﴿ ويكلم الناس في المهد وكهلا ﴾ قال الاستاذ الامام : الجملة معطوفة على ماقبلها ولا يضر عطف الفعل على الاسم، والكهل الرجل التام السوي من غير تقييد بسن معينة والكلام في المهد يصدق بما يكون في سن الكلام وهي سنة فأكثر وما يكون قبل ذلك وهو آية على كل تقدير لأن تحديثه الى الناس تفيد انه يكلمهم كلام التمام وكلام الاطفال في المهد لا يكون كذلك عادة . وفي قوله « وكهلا » بشارة بأنه يعيش الى ان يكون رجلا سويا كاملا ﴿ ومن الصالحين ﴾ الذين أتم الله عليهم وأصلح حالهم وهم الانبياء الذين تعرف مريم سيرتهم

﴿ قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ﴾ أي كيف يكون لي ولد والحال اني لم أتزوج فالمس كناية ظاهرة والاستفهام على حقيقته في وجه ومعناه هل يكون ذلك بزواج يطرأ أم بمحض القدرة؟ وفي وجه آخر للتعجب من قدرة الله والاستعظام لشأنها ﴿ قال كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾ أي كذلك هذا الخلق البديع يخلق الله مايشاء ، فان من شأنه الاختراع والابداع ، أقول وعبر هنا بالخلق وفي بشارة زكريا بيحيى بالفعل وكل منهما خلق وفعل لكن لفظ الفعل يستعمل كثيرا فيما يجري على قانون الاسباب المعروفة ولفظ الخلق يستعمل في الابداع والايجاد ولو بغير مايعرف من الاسباب فيقال خلق السموات والأرض ولا يقال فعل السموات والأرض ولما كان إيجاد يحيى بين زوجين كإيجاد سائر الناس عبر عنه بالفعل وان كان فيه آية لزكريا لأن هذين الزوجين لا يولد لمثلهما عادة واما ايجاد عيسى فهو على غير المعهود في التوالد لأنه من أم بغير زوج في الظاهر فكان بالامور المبتدأة بمحض القدرة اشبه ، والتعبير عنه بالخلق أليق ، وان كان له سبب روحاني جعل أمه بمعنى الزوج كما سيأتي ولكن هذا السبب غير معهود للناس ولا معروف لهم فمريم لا تعرفه ولكنها كانت مؤمنة بالله موقنة بقدرته على كل شيء ولذلك أحالها في البشارة على مشيئته لتكون موقنة فقال ﴿ اذا قضى أمرا ﴾

أي اذا أراد شيئاً كما عبر في آية أخرى فالقضاء بمعنى الارادة ﴿ فانما يقول له كن فيكون ﴾ قالوا ان هذا ورد مورد التمثيل لكمال قدرته ونفوذ مشيئته والتصوير لسرعة حصول ما يريد بغير ريث ولا تأخر بتشبيه حدوث ما يريده عند تعلق ارادته به بحال إطاعة المأمور القادر على العمل للآمر المطاع . ويسمون الأمر بكن أمر التكوين ومنه قوله تعالى (٤١ : ١١ ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) أي أراد ان يكونا فكانتا ويقابله أمر التكليف الذي يعرف بوحي الله لأنبيائه وقد مر الالماع لهذا من قبل

وأقول: اعلم ان الكافرين بآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب جموداً على العادات ، وذهولا عن كيفية ابتداء خلق جميع المخلوقات ، ولو كان لهم دليل عقلي على استحالة ذلك لكانوا معذورين ولكن لا دليل لهم الا أن هذا غير معتاد وهم في كل يوم يرون من شؤون الكون ما لم يكن معتادا من قبل فنه ما يعرفون له سببا ويعبرون عنه بالاكتشاف والاختراع ومنه ما لا يعرفون له سببا ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة ونحو ذلك فلماذا لا يقولون إن تلك الاشياء المعبر عنها بالفلتات لها سبب خفي وحينئذ يجب أن تهتدي هؤلاء الجامدين الى أن بعض الاشياء يجوز أن يأتي من غير طريق الاسباب المعروفة فلا ينكروا كل ما يخالفها لاحتمال ان يكون له سبب خفي لم يقفوا عليه ولا يخرج أمر عيسى في الحمل به من غير واسطة أب عن ذلك . واما ان تكون قد وجدت في الواقع ونفس الأمر خارقة لنظام الاسباب وحينئذ يجب أن يعرفوا بأن الاسباب الظاهرة المعروفة ليست واجبة وجوباً عقلياً مطرداً واذا كان الأمر كذلك امتنع على العاقل أن ينكر شيئاً ما ويعده مستحيلا لانه لا يعرف له سبباً . ولعل أبناء العصور السابقة كانوا أقرب الى ان يعذروا بانكار غير المألوف من أبناء هذا العصر الذي ظهر فيه من أعمال الناس ما لو حدث به عقلاء الغابرين لعدوه من خرافات الدجالين ، ونحن نرى علماء الغرب وفلاسفته متفقين على امكان التولد الذاتي أي تولد الحيوان من غير حيوان أو من الجماد وهم يبحثون ويحاولون أن يصلوا الى ذلك بتجاربهم . واذا كان تولد الحيوان من الجماد جائزا فتولد الحيوان

من حيوان واحد أولى بالجواز وأقرب الى الحصول . نعم انه خلاف الاصل وان كونه جوز لا يقتضي وقوعه بالفعل ونحن نستدل على وقوعه بالفعل بخبر الوحي الذي قام الدليل على صدقه

ويمكن تقريب هذه الآية الإلهية من السنن المعروفة في نظام الكائنات بوجهين (أحدهما) أن الاعتقاد القوي الذي يستولي على القلب ويستحوذ على المجموع العصبي يحدث في عالم المادة من الآثار مايكون على خلاف المعتاد فكم من سليم اعتقد انه مصاب بمرض كذا وليس في بدنه شيء من جراثيم هذا المرض فولد له اعتقاده تلك الجراثيم الحية وصار مريضاً ، وكم من امرىء سقي الماء القراح أو نحوه فشربه معتقداً انه سم ناقع فمات مسموماً به ، والحوادث في هذا الباب كثيرة اثبتتها التجارب واذا اعتبرنا بها في أمر ولادة المسيح نقول إن مريم لما بشرت بأن الله تعالى سيهب لها ولدا بمحض قدرته وهي على ماهي عليه من صحة الايمان وقوة اليقين انفعل مزاجها بهذا الاعتقاد انفعالا فعل في الرحم فعل التلقيح كما يفعل الاعتقاد القوي في مزاج السليم المرض أو يحدث في مزاج المريض فيبرأ وكان نفخ الروح الذي ورد في صورة أخرى متمما لهذا التأثير

(الوجه الثاني) وهو أقرب الى الحق ، وإن كان أخفى وأدق ، وبيانه يتوقف على مقدمة وجيزة في تأثير الأرواح في الاشباح ، وهي ان المخلوقات قسمان أجسام كثيفة ، وأرواح لطيفة ، وأن اللطيف هو الذي يحدث في الكثيف الحي ما نراه فيه من النمو والحركة والتوالد الذي يكون من النمو أو يكون النمو منه فلولا الهواء لما عاشت هذه الاحياء والهواء روح ولذلك كان من أسمائه اذا تحرك الريح وأصلها روح بكسر الراء ولأجل الكسر قلبت الواو ياء لتناسبه والماء الذي منه كل شيء حي مركب من روحين لطيفين وهو يكاد يكون في حال التركيب وسطاً بين الكثيف واللطيف ولكنه أقرب الى الثاني . والكهربائية من الارواح واحيك بفعلها في الاشباح . فهذه الموجودات اللطيفة التي سميناها أرواحا هي التي تحدث معظم التغير الذي نشاهده في الكون حتى انا قد رأينا في هذا العصر من اسرارها مالم يكن يخطر على بال أحد من قدماء فلاسفتنا ، ويعتقد علماؤنا اليوم ان ماسيظهر منها

في المستقبل أجل وأعظم. فاذا كان الامر كذلك في الارواح التي لا دليل عندنا على أنها تدرك وتريد فلم لا يجوز ان يكون تأثير الارواح العاقلة المريدة أعظم!!

اذا تمهد هذا فنقول: ان الله المسخر للأرواح المبثة في الكائنات قد أرسل روحا من عنده الى مريم فتمثل لها بشرا ونفخ فيها فأحدثت نفخته التلقيح في رحمها فحملت بعيسى عليه السلام وهل حملت اليها تلك النفخة مادة أم لا؟ الله أعلم. أما البحث في تمثل هذه الأرواح التي تسمى بلسان الشرع الملائكة فيأتي الكلام عليه في تفسير قوله تعالى (١٩: ١٧ فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) اذا أنسأ الله لنا في الاجل ووفقنا للمضي في هذا العمل (التفسير) والاستاذ الامام لم يتعرض لهذا البحث

﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ﴾ قرأ نافع وعاصم (ويعلمه) بالياء والباقون (ونعلمه) بالنون. والكتاب هنا الكتابة بالخط والحكمة العلم الصحيح الذي يبعث الارادة الى العمل النافع ويقف بالعامل على الصراط المستقيم لما فيه من البصيرة وفقه الاحكام وأسرار المسائل والتوراة كتاب موسى فقد كان المسيح عالما به يبين اسراره لقومه ويقيم عليهم الحجج بنصوصه والانجيل هو ما أوحي اليه نفسه وقد تقدم في تفسير — أول السورة الكلام فيهما والكلام معطوف على قوله « ويكلم الناس » وآية « قالت رب » معترضة بينهما ﴿ ورسولا الى بني إسرائيل ﴾ أي ويرسله أو يجعله (بالياء أو النون) رسولا الى بني إسرائيل. فحذف لفظ يرسله أو يجعله لدلالة الكلام عليه كما قال الشاعر

ورأيت زوجك في الوغا متقلدا سيفا ورمحا

وقال الاستاذ الامام: ان الرسول هنا بمعنى الرسالة والتقدير ويعلمه الرسالة الى بني اسرائيل واستعمال لفظ الرسول بمعنى الرسالة شائع قال كثير

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسرّ ولا أرسلتهم برسول

وفي رواية « برسيل » قال وبعض المفسرين يجعل الرسول بمعنى الناطق أي ناطقا الى بني إسرائيل ﴿ أني قد جئتكم بآية من ربكم ﴾ أقول والمعنى على التقدير الاول الله يرسله محتجا على صدق رسالته بأني قد جئتكم بآية من ربكم وفسر الآية

بقوله ﴿ أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ﴾ قال الاستاذ الامام : الخلق التقدير والترتيب لا الانشاء والاختراع ويقرب ان يكون هذا إجماعاً من المفسرين وفسره الجلال هنا بالتصوير لأنه من التقدير

أقول وذكر الجلال كغيره انه كان يتخذ من الطين صورة خفاش فينفخ فيها فتحلها الحياة وتتحرك في يده ، وقال بعضهم بل تطير قليلا ثم تسقط - قال الاستاذ الامام: ولا حاجة الى هذه التفصيلات بل نقف عند لفظ الآية وغاية مايفهم منها ان الله تعالى جعل فيه هذا السرّ ولكن لم يقل انه خلق بالفعل ولم يرد عن المعصوم ان شيئاً من ذلك وقع ، وقدجرت سنة الله تعالى ان تجري الآيات على أيدي الأنبياء عند طلب قومهم لها وجعل الايمان موقوفاً عليها فان كانوا سألوه شيئاً من ذلك فقد جاء به وكذلك يقال في قوله ﴿ وأبرئ الاكمه والابرص واحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ﴾ فان قصارى ماتدل عليه العبارة أنه خص بذلك وأمر بأن يحتج به والحكمة في إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بذلك إ[illegible] وأما وقوع ذلك كله أو بعضه بالفعل فهو يتوقف على [illegible] يحتج به [illegible]

هذا ماقاله الاستاذ الامام ومن الغريب ان ابن جرير يروي عن ابن اسحق « ان عيسى صلوات الله عليه جلس يوما مع غلمان من الكتاب فأخذ طينا ثم قال اجعل لكم من هذا الطين طائرا ؟ قالوا وتستطيع ذلك؟ قال نعم باذن ربي ثم هيأه حتى اذا جعله في هيئة الطائر فنفخ فيه ثم قال كن طائرا باذن الله فخرج يطير بين كفيه » فكأنه اتخذ آية الله على رسالته ألعوبة للصبيان والحاصل انه ليس عندنا نقل صحيح بوقوع خلق الطير بل ولا عند النصارى الذين ينقلون وقوع سائر الآيات المذكورة في الآية الاماني انجيل الصبا من نحو ماقال ابن اسحق وهو من الاناجيل غير القانونية عندهم . ولعل آية سورة المائدة أدنى الى الدلالة على الوقوع من هذه الآية وهي (واذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني واذ تبرئ الاكمه

والابرص باذني ، واذ تخرج الموتى باذني ، واذ كففت بني اسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات) فان جعل ذلك كله متعلق النعمة يؤذن بوقوعه الا ان يقال ان جعل هذه الآيات مما يجري على يديه عند طلبه منه والحاجة الى تحديه به من أجل النعم وأعظمها ولكن هذا خلاف الظاهر

ومذهب الصوفية ان روحانية عيسى كانت غالبة على جثمانيته أكثر من سائر الروحانيين لأن أمه حملت به من الروح الذي تمثل لها بشرا سويا فكان تجرده من المادة الكثيفة للتصرف بسلطان الروح من قبيل الملكة الراسخة فيه وبذلك كان اذا نفخ من روحه في صورة رطبة من الطين تحلها الحياة حتى تهتز وتتحرك واذا توجه بروحانيته الى روح فارقت جسدها أمكنه ان يستحضرها ويعيد اتصالها بجسدها زمنا ما ، ولكن روحانية البشر لاتصل الى درجة احياء من مات فصار رميما . ويؤيد ذلك مايقله النصارى من احياء المسيح الموتى فانهم قالوا إنه أحيا بنتا قبل أن تدفن وأحيا العازر قبل أن يبلى [illegible] كان رميما . وأما ابراء الاكمه والابرص بالقوة الروحانية فهو أقرب الى مايعهد الناس لاسيما مع اعتقاد المريض و يقول المجاهد ان الاكمه من لا يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار والمشهور انه من ولد أعمى . وأما الاخبار ببعض المغيبات فقد أوتيه كثيرون من الانبياء ومن دون الانبياء (ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) أي ان فيما ذكر لحجة لكم على صدق رسالتي ان كنتم مؤمنين بالله مصدقين بقدرته الكاملة ، ومن مباحث اللفظ ان قوله فانفخ فيه يعود الى الطير أو الى ماذكر

(ومصدقا لما بين يدي من التوراة) أي انه لم يأت ناسخا للتوراة بل مصدقا لها عاملا بها ولكنه نسخ بعض أحكامها كما قال (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) فقد كان حرم على بني اسرائيل بعض الطيبات بظلمهم وكثرة سؤالهم فأحلها عيسى (وجئتكم بآية من ربكم) قال الاستاذ الامام : اعاد ذكر الآية للتفرقة بين ماقبلها وما بعدها فاتقوا (الله وأطيعون ان الله ربي وربكم فاعبدوه) أمرهم بتقوى الله وطاعته فيما جاء به عنه وختم ذلك بالتوحيد والاعتراف بالعبودية وقال في ذلك (هذا صراط مستقيم) أقرب موصل الى الله

تاريخ المصاحف

هذا ما وعدنا بنشره مما كتبه صاحبنا موسى افندي جار الله الروسي قال

قال العلماء أول ما نزل من القرآن « اقرأ باسم ربك الذي خلق — خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » ولم ينزل بعده شيء الى ثلاث سنوات (وتسمى هذه السنوات زمن فترة الوحي) ثم أخذ القرآن ينزل في تضاعيف عشرين سنة (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا — الاسراء — كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا — الفرقان) فمنه ما نزل مفرقا وهو غالب القرآن ومنه ما نزل جملة كالفاتحة والاخلاص والكوثر وأغلب الانعام • وكلما نزل عليه صلى الله عليه وسلم آية أو سورة وسرّي عنه كان يقرىء الصحابة ما نزل ويستحفظهم فيحفظونه على الفور عن ظهر قلب ويعتنون بذلك تمام الاعتناء لان الحفظ الحرفي في عصر الرسالة وزمن النزول كان من أعظم العبادات وأقرب القرب وكانوا اذا حفظوا آية من النبي عليه السلام يرددون عليه غير مرة ويتلونها امامه حتى يزداد تثبتهم من حفظها وأدائها ويسألونه عن معانيها كلمات حتى يفرغوا عليها وبعد إتقان الحفظ والتثبت في تمام الضبط أخذ كل واحد منهم ينشر ما حفظ : كانوا يعلمونه الاولاد والصبيان والذين لم يشهدوا النزول ساعة الوحي من أهل مكة والمدينة ومن حولهم من الناس فلا يمضي يوم أو زمان الا وما نزل محفوظ في صدور جماعة غير محصورين وقد عين جماعة عظيمة من الصحابة على حفظ القرآن والقراءة وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة قبل الهجرة جماعة من حفظة الصحابة يعلمون القرآن لاهل المدينة واولادها وكان الرجل اذا هاجر الى المدينة دفعه النبي عليه السلام الى رجل من أولئك الحفظة يعلمه القرآن • ولما فتح مكة ترك فيها معاذ بن جبل لذلك وكان من أكابر الصحابة — وهم ألوف — من يعتني بشرف حفظ القرآن ومعانيه واتقانه حفظا وكتابة • كانوا لا يألون نهارهم ولا ينامون ليلهم باعتنائهم واشتغالهم بضبط الآيات وحروفها ووجوهها وكان لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضجة وزجل بتلاوة القرآن وكان النبي يسمع الى الملأ منهم ويحمد الله على ان جعل في أمته أمثالهم

ويمثل هذه الاحكام التام لاتقان القرآن في عصر الاسلام حفظه ألوف من

الصحابة في تضاعيف عشرين سنة

وحيث ان القرآن كان ينزل مفرقا منجما ويحفظه الذين يمتون به على مهل ومكث في تضاعيف سنوات كثيرة وذلك أعون في الحفظ وأيسر للذكر وأكثر من حفظه كان شرع في حفظه من صباه وزد عليه ما كان للنبي عليه السلام المعصوم من لسان القرآن من كمال الاعتناء والاهتمام بالترغيب في حفظه والامر بتعاهده — فكل من تأمل أدنى تأمل يتيقن ويقطع ان القرآن قد حفظ في الصدور بتمام الاتقان وارسخ الحفظ وأتم الضبط وكمل البيان • وقد اتفقت الاحاديث ودلت الآثار على ان النبي عليه السلام كان يوقف أصحابه على ترتيب آيات السور ويعلمهم مواضعها من السورة نصا وكان يقرأ السورة في الصلوات وغيرها ويسمعونه فيعرفون من ذلك ترتيب الآيات فالصحابة ضبطت عنه عليه السلام ترتيب آي كل سورة ومواضعها كما ضبطت عنه نفس الآيات وتلاوتها. وكانت السور مرتبة لحديث أحمد وأبي داود في تحزيب القرآن وحديث واثلة في اعطاء السبع الطوال والمئين والمثاني بدل الكتب الثلاثة السماوية . التفضيل بالحواميم والمفصل والاحاديث تدل على ان النبي عليه السلام كان يختم القرآن وان الصحابة كانوا يختمون ختمات . وكل ذلك يدل دلالة واضحة على ان القرآن كان محفوظا في صدور الوف من الصحابة مجموعا مرتبا على ترتيب معلوم عند كل واحد منهم . قال معاذ عرضنا القرآن على النبي عليه السلام فلم يعب منا أحدا

وكان للنبي عليه السلام كتبة يكتبون فورا كل ما نزل اليه على الصحائف والقراطيس من الرقوق والاوراق غالبا وعلى الالواح وعسب النخل احيانا • كان النبي عليه السلام يملي عليهم مباشرة يقول ان هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا • وكان كتابة ما نزل من القرآن ملازمة منهم حتى زمن الاختفاء في أوائل الاسلام اذ كان المسلمون يتدارسون القرآن من الصحائف في البيوت وكان المشركون يدعون الدراسة اذ ذاك الهينمة (١) من شواهده حديث عمر قبل اسلامه مع أخته وختنه

وكانت العرب تكتب كل شيء نفيس أو مهم عندهم كالاشعار الفصيحة والخطب البليغة • من شواهد ذلك القصائد المعلقة والصحيفة التي أكلتها الارضة • وكان كثير من الصحابة لهم علم بالقلم وكان أنس بن مالك يقول هذه أحاديث سمعتها من

(١) المنار: ما كانوا يسمون كل قراءة هينمة بل القراءة الخفية والهينمة الصوت الخفي

رسول الله وكتبتها وعرضتها' وكثير من هؤلاء كانوا يكتبون في الصحائف كل آية حفظوها ويعرضونها على النبي عليه السلام . وعين من هؤلاء جماعة على كتابة الوحي كانوا متمكنين من الكتابة باللسان العربي كل التمكن كعلي وعثمان وعمر وزيد بن ثابت وابن مسعود وأنس بن مالك وعبدالله بن سلام وغيرهم

فكان النبي يملي عليهم مباشرة فيكتبون ما نزل بحضرته ويعرضونه عليه مرة بعد أخرى حتى يفرغ . بهذه الكيفية كتب القرآن من أوله الى آخره في حياة الرسول على صحائف وقراطيس متفرقة . وكانت هذه الصحائف والقراطيس أغلى عندهم من أنفسهم وأنفس من كل نفيس وأحب اليهم من كل حبيب جليس . يدل عليه احاديث رويناها في تنافسهم في حفظ هذه الصحائف والقراطيس وفي حبهم التبرك بها احيانا في المجالس

وكل ما ذكرته عن شأن حفظ القرآن في الصدور وما أجمله بعد ذلك في كيفية جمعه في الصحائف وأثبته في السطور يدل دلالة قطعية باهرة على أن القرآن زمن النبي عليه السلام كان مجموعا مرتبا على ترتيب معلوم ' محفوظا في الصدور ' مكتوبا على ترتيب الحفظ في السطور والاحاديث متضافرة متساعدة في ذلك

ولان اهمال الحفظ والكتابة والترتيب من النبي ومن الوف مؤلفة من الصحابة الذين يتيقنون ان السبب في عزهم وسعادتهم هو القرآن . وانه هو أساس دينهم وشريعتهم ' وانه هو الذي يقربهم الى الله عز وجل والذين كانوا يبذلون جميع ما يستطيعون وما يتصوره العقل في سبيل حفظه كما أنزل مصونا عن ادنى شائبة الاهمال من مثل هؤلاء — شيء محال لاريب فيه .

ثم توفي رسول الله يوم أكمل الله لنا ديننا ورضي لنا الاسلام دينا والاسلام قد ظهر في جميع جزيرة العرب وفيها مدن وقرى كثيرة كاليمن والبحرين وعمان ونجد وجبلي طي وبلاد مضر وربيعة وقضاعة والطائف ومكة كلهم قد أسلم وبنوا المساجد ليس فيها مدينة ولا قرية ولا حلة اعراب الا وقد قرىء فيها القرآن في الصلوات وعلمه الصبيان والنساء وكتب . ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون كذلك ليس بينهم اختلاف في شيء أصلا كلهم أمة واحدة ودين واحد ومقالة واحدة ثم تولى الامر أبو بكر سنتين وستة أشهر فغزا فارس والروم وفتح اليمامة وزادت قراءة الناس القرآن وجمع الناس المصاحف جماعة كأبي وعمر وعثمان وعلي وزيد وأبي

زيد وابن مسعود وسالم . ولم يكن بين المسلمين اختلاف في شيء زمن خلافته ' وما
كان من ظهور الاسود العنسي في صنعاء ومسيلمة باليمامة وانقسام العرب أربعة أقسام:
طائفة ثابتة على الطاعة ' وطائفة مانعة للزكاة ' وطائفة معلنة بالردة ، وطائفة متوقفة
متربصة لمن تكون الغلبة . فقد أخرج اليهم أبو بكر البعوث ' وجهز اليهم عصابة
من المسلمين فقتل الاسود ومسيلمة ولم يمض عام واحد حتى راجع اجمع الاسلام '
فلم تكن هذه الفتن الا كنار اشتعلت فانطفأت لساعة . فبعد أن سكنت هذه الفتن
احس عمر الفاروق بضرورة جمع القرآن في كتاب واحد على مشهد من جميع الصحابة
وملأ من الحفظة والكتبة . ولما استقر رأي أبي بكر وعمر على ذلك احضرا زيد
بن ثابت وابديا له ما عزماه . واستعظم زيد ذلك أولا واستسهل نقل الجبل شأن
كل مقتدر على عظائم الامور 'يقدر الامر حق قدره 'محتاط عاقل لايغفل عما يلزم
عليه في القيام باعظم المصالح من كمال الاقتدار وواجب الاحتياط وعظيم التثبت وبالغ
الجد والاجتهاد ووفور السعي ، غير مفتخر بما له من الخصال وان كان فريدا مفردا فائقا
على أقرانه وأهل عصره . ووافق أخيرا وعزم على ما عزما عليه . والانسان مهما
بلغ في الاقتدار وعلو المستوى يكون [illegible] عظيم وعزمه وتصوره من
جميع وجوهه غير [illegible] يعتريه طبعاً نوع
من التردد ونوع يشبه التوقف [illegible] العازم عن عزمه وجمع
أبو بكر الحفظة المشهود لهم بالضبط والاتقان . وكان أهمهم زيد وأبي بن كعب
وعثمان وعلي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن
مسعود وعبد الله بن السائب وخالد بن الوليد وطلحة وسعد وحذيفة وسالم وأبو
هريرة والصامت وأبو زيد وأبو الدرداء وأبو موسى الاشعري وعمرو بن العاص
واجتمعوا برياسة زيد بن ثابت في منزل عمر ليتشاوروا في كيفية جمعه وتخصيص أعمال
كل واحد منهم . ثم أخذوا يوالون اجتماعاتهم في مسجد المدينة لكتابة القرآن .
وكلهم كانوا يحفظونه عن ظهر قلب وكانوا قد اشتغلوا قبل بكتابته جملة مرار من
مذاكرتهم ليتحققوا من ضبطهم له وحفظهم اياه وجاء من كان كتب مصحفا بمصحفه
واحضروا كل الصحائف والقراطيس التي كتبوا فيها القرآن بحضرة النبي عليه السلام
واملائه وعهدوا الى بلال ان ينادي بانحاء المدينة ان من كانت عنده قطعة عليها شيء
من القرآن فليأت بها الى الجامع وليسلمها الى الكتبة المجتمعين لجمع القرآن على مشهد
الصحابة ، وجيء بعدد كثير من القطع ، وما كانوا يقبلون قطعة حتى يتحققوا انها

كتبت بين يدي النبي وحضرته اذ كان غرضهم ان لايكتب الامن عين ما كتب بين يديه وما كانوا يعملون ذلك الا مبالغة في الاحتياط ومغالاة في التحفظ وإغلالا في الضبط · وكانوا يقابلون القطع بعضها ببعض لئلا يبقى مجال لشك في تمام الضبط · وكتب القرآن زيد بن ثابت جميعه · قال زيد حتى وصلنا الى آية « لقد جاءكم » من سورة التوبة فقدناها وفتشناها لنجدها مكتوبة ثم وجدناها مكتوبة عند أبي خزيمة ابن أوس بن زيد الانصاري · وقال زيد حتى وصلنا الى سورة الاحزاب ففقدت آية من سورة الاحزاب حين نسخت الصحف قد كنت أسمع رسول الله يقرأ بها فالتمسناها لنجدها مكتوبة فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الانصاري « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فالحقناها في سورتها في المصحف وتم جمعه · وجمع عمر جميع الحفظة والصحابة وقرأه عليهم · ولم يقم من أحد منهم اعتراض حين العرض · ولم يسمع ولم يظهر بعد أيضاً · وبعد اجماع أكابر الصحابة على هذا الترتيب في هذا المصحف لايمكن ان يقال انهم رتبوا ترتيبا غير الترتيب الذي سمعوا النبي عليه السلام يقرأه على خلافه · واجماعهم على هذا الترتيب واقرارهم عليه بلا اختلاف من أحد منهم أقوى برهان على أنهم وجميع [illegible] أمر القرآن تقريرا قطعيا في هذا المصحف · وكان ذلك أعظم [illegible] الصحابة وأهم شيء حدث في الاسلام وأفضل من" لهم علينا الى يوم القيام · وتوفي أبوبكر وهو أعظم الناس اجراً في المصاحف وتولى الامر بعده عمر ففتحت بلاد الفرس طولا وعرضا وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها ولم يبق بلد الا وبنيت فيه المساجد ونسخت فيه المصاحف وقرأ الائمة القرآن وعلمه الصبيان في المكاتب شرقا وغربا · بقي كذلك عشرة أعوام وأشهرا والمسلمون لا اختلاف بينهم في شيء ملة واحدة ومقالة واحدة · والمسلمون اذ مات عمر وان لم يكن عندهم زيادة على مائة الف مصحف من مصر الى العراق الى الشام الى اليمن فما بين ذلك فلم يكن أقل من ذلك · لان الخليفة عمر الذي كان كاد يموت هما بأمر المسلمين والذي حفر الخليج بعد عام الرمادة فساقه من النيل الى القلزم فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن فحمل فيه ما اراد من الطعام لأهل المدينة ومكة وما بينهما خليفة هذا شأنه لم يكن ليترك بهاتيها ومدينة وقرية ولي أمرها بلا مصحف يقرأ فيه أهلها

« الكلام بقية »

➤ باب المقالات ➤

منافع الاوربيين ومضارهم في الشرق (*)

١

سأل سائل بترعة السويس هل كانت نافعة للمسلمين أو الشرقيين أم ضارة بهم فأجاب غير واحد بأنها كانت مثار المضار، ومركز الاخطار، لولاها لما جاس الاوربيون خلال هذه الديار، ولما تمكنت سلطتهم في كثير من الاقطار، وأجاب واحد ممن حضر بأنها كانت نافعة أكثر مما كانت ضارة اذ لولاها لكان أهل الهند والافغان كأهل مراكش في جهلهم وغفلتهم وجفوتهم للمدنية وفنونها التي وصلت اليها في هذا العصر بل ولكانت مصر التي تزهو بعمرانها الآن خرابا يؤدي ذكران اليوم المشرات من [illegible] الطريقة التي كانت متبعة عند اليوم في الزواج على عهد اسماعيل باشا [illegible] باليابان وما صارت اليه، وبالصين وماتشرف عليه،

يسهل على غير الخبير المحقق في طبيعة الاجتماع، العارف حقيقة حال الهند والافغان ومراكش ومصر، ان يماري في القول مراء ظاهرا أو غير ظاهر، وان يستفتي امثاله : أليس الفرق عظيما بين الهند التي كانت زاهية على عهد السلطنة التيمورية، بالمعارف والصنائع الوطنية، مستغنية بنفسها عن أوربا وسائر العالم وبين مراكش التي كانت ولاتزال تغلب عليها البداوة بجهالتها وغباوتها وعصبيتها لكل نظام ؛ أليس كل ماينسب الى الافغانيين من الفضل هو تجافيهم عن المدنية الاوربية ومنع الاوربيين ان يساكنوهم

(*) كتبنا هذه المقالة « الجريدة » ونشرت فيها

في بلادهم أو تجروا فيها آمنين ولولا ذلك لضاع استقلالها وكانت ولاية من ولايات الهند ؟ ألم تأخذ مصر بأسباب المدنية الاوربية من عهد محمد علي باشا وهي على استقلالها ؟ ألم تدخل في أول ولاية محمد توفيق باشا في طور جديد من اصلاح خابت به آمال طلاب الزواج من اليوم بالقرى والمزارع التي آلت الى الخراب ؟ كل هذا يقال في الاستفتاء ويقال اكثر منه ويكون نص الفتوى عن كل سؤال : بلى : وهي كلمة يكتفي بمثلها مشايخ الاسلام في الاستانة اذ يجيبون بكلمة « اولور » في مقام الايجاب وبكلمة « اولماز » في مقام السلب ، وبعد ذلك يأتي الحكم على الاوروبيين كافة بأنهم ما جاؤا الشرق بخير ما ولا منفعة بل جاؤه بشرور ومضار اعظمها ازالة استقلاله وأي خير أو نفع يوزن بسلب الاستقلال حتى تصح المقابلة بين منافع الاوروبيين ومضارهم في الشرق ؟

هذا هو الحكم الذي يرضي قاضيه عن نفوس معتقدة الجماهير والجماهير في الشرق جاهلون بالسياسة راغبون عنها وقل في المشتغلين منهم بها والباحثين عنها من يحيط بأطراف مسائلها ، ويعرف المطالب بيراهينها ودلائلها ، ولولا ان هؤلاء العارفين قليلون فينا لما كنا نشكو مرض الامة الذي يعبرون عنه بلفظ التأخر والانحطاط . وهؤلاء العارفون القليلون لا يرضون بهذا الحكم وانهم لأعلم من غيرهم بقيمة الاستقلال الذي عبث به الاوربيون وبانه لا يوزن به شيء ولكنهم يعطون كل شيء حقه ثم يوازنون بين الاشياء لا يمنعهم من ذلك ان يكون في احدى كفتي الميزان ما يرجح بكل ما يوضع في الاخرى . على هذه الطريقة القويمة نسير في بيان منافع الاوربيين ومضارهم في الشرق بعد تمهيد مقدمات

تعين على فهم مرادنا من المقابلة وهي

(١) انا نريد بالمنافع كل ما يزيل شيئاً من شقاء الامة أو يزيد في سعادتها فيدخل فيها أمور الصحة ولا سيما مطاردة الاوبئة، وأمور المعاش والكسب ولا سيما ترقية الزراعة وتأسيس الشركات المالية، ويدخل فيها العلم والتربية والآداب وأمور الاجتماع وتدبير المنزل والعلم بالادارة والسياسة وأصول النظام وغير ذلك مما ينقل الامة من طور أدنى الى طور أرقى

(٢) اننا نريد بالمضار ما يقابل المنافع بجميع وجوهها التي أومأنا اليها آنفا وهو كل ما تصير به الامة الى حال شر مما كانت عليه في أفرادها وبيوتها وهيئتها العامة سواء كان ذلك من جهة البدن كالمعاش والصحة أو من جهة النفس كالعلوم والاخلاق والآداب وان شئت فقل كما يقول كتاب العصر من الجهة المادية والجهة الادبية ويدخل في الجهة الادبية الدين

(٣) انا نريد بالاوربيين كل ما يتناوله اللفظ لا الحاكمين منهم خاصة

(٤) ان المقابلة التي نوازن بها بين المنافع والمضار إضافية أي اننا ننسب حال الامة بعد اختلاطها بالقوم الى حالها قبله لا الى ما ينبغي ان تكون عليه من الكمال ولا الى ما عليه الامم الاوربية في أنفسها ولا الى ما نهوى عامتنا أو خاصتنا أن تكون عليه

(٥) ان الكلام في المقابلة لا يتناول نيات القوم ومقاصدهم فينا وانما هو خاص بالاثر الطبيعي لدخولهم في البلاد سواء جاء على وفق ما يقصدون أو على ضده

(٦) ان الغرض من بيان المنافع التنويه بها والتنبيه الى الاستزادة

منها ، ومن بيان المضار تقبيحها والتنفير عنها ، ووراء ذلك تلبية نداء التاريخ بتخليد هذه الحقيقة في ألواح الصحف سالمة من نزغات تعصب الجاهلية ، محفوظة من نزغات الاهواء السياسية ، لان مدونها يحبها لذاتها ولا يخاف في تقريرها لومة لائم ويحب ان يكون المسلمون وسائر أهل الشرق على هدى وبصيرة فيما يأخذون وفيما يتركون

(٧) انه لا يفقه هذا الموضوع حق الفقه الا من كان عارفاً تاريخ الشرق حق المعرفة خبيراً بأخلاق الناس فيه وعاداتهم وطبائع الامم واحوال الاجتماع وشؤون السياسة ونحن لا نكتب هذه المقارنة والموازنة لمثل هذا العالم الاجتماعي النحرير وانما نكتبها للجمهور الذي لا يعرف من حال نفسه وحال من يعيش معهم الا ظواهر غرارة لا تنفذ بصيرته الى شيء مما وراءها [illegible] أحاط بما هنالك علما ، وقتله فقهاً وفهماً

من مسائل علم الاجتماع ان الافراد والامم المؤتلفة منها تقتبس ممن يخالطها ويجاورها ما يناسب استعدادها ، فالالبانيون لما كانوا أهل حرب وأولي قوة وبأس اقتبسوا من الاوربيين النظام العسكري وما يتبعه من الاستعداد للحرب والكفاح ، والسوريون لما عرف من استعدادهم القديم للتجارة كان أول شيء استفادوه من الاوربيين فنون التجارة وطرقها الجديدة حتى بذوهم في ذلك فقد كان معظم تجارة سوريا الكلية ببيروت في ايدي الاجانب فغلبهم عليها من كانوا يخدمونهم من الاهالي حتى لم يبق لهم منها الا اقلها ، والمصريون وهم أهل حرث وزرع قد استفادوا منهم في ترقية زراعتهم ما سبقوا به جميع الزراع في الشرق ، وكذلك يكون اقتباس

المنار على حسب الاستعداد فلابد من تدبير هذه القاعدة الاجتماعية فيما نذكر من المقابلة والموازنة في الفصول الآتية

٢

نبتدئ بذكر المنافع والفوائد التي استفدناها بمخالطة الاوربيين والاتصال بهم وفي اقتباس علومهم ومعرفة أحوالهم وشؤونهم فنعد منها مايسبق الى الذهن انه الاهم ونختار في سردها معدودة لفظ الفوائد فنقول

(الفائدة الاولى استقلال الفكر)

رأيت في يد أحد طلاب العلم جريدة جديدة وكنت تلميذاً في فرقته ورأيته يغمطها ويدعي انه يقدر على انشاء جريدة خير منها فقلت له اني لأدعي مثل هذه الدعوى فان كنت واثقاً بما تقول فا كتب لي مقالة في موضوع اجتماعي أو سياسي مما [illegible] فيه [illegible] قال اقترح قلت اكتب لي مقالة في الاستقلال فسكت ولم يرجع الي قولا ولا كتب شيئاً

عزمت على ان أكتب شيئاً في استقلال الفكر ولم افرغ له الا بعد ثماني ساعات لم تخطر في بالي فيها تلك الواقعة ولكن كانت أول ماسبق من الذهن الى القلم عند الكتابة وما أثبتها عبثاً ولا فكاهة بل أردت أن أنبه القارىء الى جلال الموضوع الذي لاازال أجله من ذلك اليوم عسى ان يهبه من انتباهه مايليق به ولاسيما اذا كان يحب الاستقلال لنفسه ولامته

يكثر في الجرائد ذكر استقلال الامم والشعوب وقلما تذكر شيئاً في استقلال الافراد الذي هو اصل استقلال الجماعات الكبيرة التي تسمى امماً وشعوباً

استقلال الآحاد نوعان استقلال الفكر واستقلال الارادة وهذان

النوعان هما الجناحان للانسان يطير بهما الى الكمال في العلم والعمل ويكون حظه من النجاح على قدر حظه من قوتهما وحسن استعمالها

استقلال الفكر يكون ببلوغ العقل اشده وارتقائه الى مستوى رشده فان العقل القاصر هو الذي يتبع مذهب التقليد في كل ما يلقى اليه كما ترى من الاطفال ومن هم في حكم الاطفال من الرجال . فالمستقل في فكره هو الذي يستعمل عقله في البحث عن الحق والصواب في معارفه والتمييز بين النافع والضار من مصالحه أو مصالح امته عند ما يبحث فيها فلا يقبل من هذا ولا ذاك قول من هو مثله الا اذا ظهر له انه الحق والصواب

ان الذي لا يعرف الحق والصواب بالنظر والاستدلال لا يعد عالماً ولا سياسياً بل لا يعد عاقلا لان ما يحفظه من اقوال الناس في الكتب والجرائد أو في البيوت والمحافل لا يرفعه الى رتبة العقلاء الذين يميزون بين الاقوال بالدليل العقلي فان الاولاد الذين يحفظون الاقوال مثله ولا يعدون من العقلاء الا اذا أريد بالعاقل من ليس مجنوناً يجب ان يساق الى البيمارستان أو مستشفى المجاذيب فان هذا الاصطلاح يسمح لنا ان نطلق لقب العاقل على الامّعة الذي لا رأي له وانما يتابع كل واحد على رأيه لا سيما اذا لم يكن متهما عنده بعداوته له لسبب من اسباب التهم

استقلال الفكر طبيعي في البشر كما ان ضده وهو التقليد طبيعي فيهم فأما التقليد فهو طبيعي في الراشدين ولولا ذلك لما ارتقوا في علم ولا عمل ولسار جميعهم على ما كان عليه أول واحد منهم فكانوا كالبهائم متساوين في علومهم وعملهم « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

لو ترك الناس وفطرتهم لأعطوا طور القصور حقه وطور الرشد حقه

ولكان معظم الأفراد الذين بلغوا أشدهم مستقلين في أفكارهم مستدلين على آرائهم ولكانت أعمالهم على حسب افكارهم. لاستقلال اراداتهم المعبر عنه بالحرية الشخصية في عرف هذا العصر ولكن الرؤساء المسيطرين قد تصرفوا في الفطرة تصرفاً ذهب بالاستقلال الذي لا يتفق مع الاستبداد . ولذلك ترى أهل البداوة أقرب الى الاستقلال من أهل الحضارة المحكومين بسلطة استبدادية

الحضارة كمال بشري وآفته الاستبداد، الذي يحول دون ما تقتضيه الحضارة من كمال الافراد، لعبثه باستقلالهم وسيطرته عليهم في علومهم وأعمالهم ،

التعليم في البلاد التي تساس بالاستبداد يكون مبنياً على التقليد بطبع الحكومة لان الذين يعرفون الحقائق لا يرضون أن يحكم في مجموعهم واحد منهم ارادته حكم [illegible] استقلال الافكار حرب لحكم الاستبداد وكثيراً ما كانت هذه الحرب سجالاً والعاقبة للمستقلين.

الشرق اعرق في التقليد من الغرب فهو اعرق في الاستبداد ايضاً وقد ظهر الاسلام في الشرق وهو يرسف كالغرب في قيود التقليد ويئط من وزر الاستبداد الثقيل فكسر القيود ووضع الاوزار ولكن عاد الاستبداد الى المسلمين بعد اقل من نصف قرن فكان كلما قوي يقوى التقليد ويضعف الاستقلال حتى زال من مجموع الامة وصار الافراد المستقلون فيها كالغرباء لا وليّ لهم ولا نصير

قاست أوربا من بلاء الاستبداد أكثر مما قاست ممالك الشرق وحلكت ظلمات التقليد فيها أكثر مما حلكت في غيرها ولكن ما عتمت ان ضاء لها قبس من علوم عرب الاندلس وغيرهم فوجد فيها من عرف

قيمته، وانقضى في استعماله عزيمته، حتى صار ضياء ساطعا، ونوراً في تلك الآفاق لامعاً، وجاءت ساعة المشرق، بطلوع الشمس من المغرب،

جاهدت أوربا أفضل الجهاد في سبيل استقلال الفكر والارادة حتى ظفرت باعدائها من رجال الدين، والملوك المستبدين ،وجعلت كلمة الدليل هي العليا، وكلمة التقليد هي السفلى ، فجمعت بين عزة البداوة، ومحاسن الحضارة، فارتقت فيها العلوم والاعمال، الى درجة لم تمهد في جيل من الاجيال، من حيث رجع الشرق القهقرى « وغداً يقدمه الزمان الى ورا »

ما كان العلم ليدع الجهل على ماهو عليه حتى يحكم فيه حكمه، ويوقع على أهله عدله أو ظلمه، اندفعت أوربا الى الشرق مستعمرة للارض، أوداعية الى الدين، أوطالبة للكسب، فامتزج أهلها بأهله، ووصلوا جهلها بجهله، بما أنشأوا من المدارس والمعاهد والكتب والصحف والاعمال، فطفق أهل الشرق يتعلمون على الطريقة الاوربية طريقة البحث، والاستدلال، والاستنباط والاستنتاج، وانشأوا يستنشقون نسيم الاستقلال، ويتوجهون الى طلب الكمال ،

فهذه فائدة كبرى قد استفدناها من الاوربيين ينبغي أن نشكرها لهم ونحمد لاجلها معرفتهم • وليس للمسلم ان ينكر ذلك محتجاً بأن القرآن الحكيم قد أرشد الى هدم التقليد وقام على اساس الاستقلال في الاستدلال فان هذا وان كان حقاً يعترف به المنصف من علماء أوربا لم يكن هو المنبه في هذا العصر للشرق عامة وللمسلمين خاصة ودليلنا على هذا ان رجال الدين منا لا يزالون الى الا كثر اسرى التقليد واعداء الاستقلال، فيجب ان تنصفهم انفسنا ونشكرلهم تنبيهنا الى مصلحتنا ،

الجامعة الاسلامية

تكلم اللورد كرومر في تقريره الاخير عن الجامعة الاسلامية كلاما يؤيد الذين أظهروا يقظة المسلمين في غير شكلها فرأينا ان ننشر ما كتبه الاستاذ الامام عن ذلك في رده الثاني على موسيو هانوتو وهو لم ينشر في الرسائل المتداولة ناقلين ذلك عن الجزء الثاني من تاريخه قال رحمه الله

شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد في جميع البلاد الاسلامية

أؤكد لمسيو هانوتو ان هذه الدعوة لم يوجد لها أثر الى اليوم في بلد من بلاد المسلمين ولو خطا خطوة الى معرفة أحوالهم على ما هي عليه لما خطر بباله ان يشير الى هذه الدعوة فضلا عن أن يبني عليها حكما وان ما علق بالاوهام منها فانما منشؤه سوء فهم بعض متعصبي الشرق ثم انعكاس ذلك في اذهان سياسيي المغرب وقد يكون لسوء النية بعضهم مدخل في تعظيم ما توهم فيها

وإني أعرض الحقيقة كما هي لا يغشاها ستار من تمويه ولا غطاء من تلبيس وأرجو ان يكون في هذا البيان ما يقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم في كلامهم عن الدين ومايرد أمثال صاحب الجريدة التي نشرت حديثه(١) الى رشدهم حتى يتقوا الله في أنفسهم وأهل بلادهم ولا يتخذ بعضهم من السلم حربا ولا من السكون شغبا

لا أنكر أن طائفا من الدين طاف في هذه السنين الاخيرة بعقول بعض المسلمين في أقطار مختلفة من الارض وان نسمة من نفس الرحمن مرت بأنفس قليل من أهل الفضل فيهم فحركت ساكنهم، وأثارت هممهم، الى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين، وفيما صاروا اليه، وان منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلا الى الكلام ومنهم من ينشر رأيه في كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل

---

(١) يعني بالجريدة الاهرام وكان صاحبها نشر فيها حديثا دار بينه وبين هانوتو بعد الرد الأول عليه وما ننشره هنا هو من الرد على هذا الحديث

فلك . ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون ما لا يعلمون، ويهرفون بما لا يعرفون، ولا كلام لنا في هذر المقلدين ، وانما كلامنا فيما يرمي اليه غرض أولئك الناظرين

ظهر الاسلام لا روحيا مجردا ، ولا جسدانيا جامدا ، بل انسانيا وسطا بين ذلك أخذ من كل من القبيلين بنصيب فتوفر له من ملائمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره ولذلك سمى نفسه دين الفطرة وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة الاولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية . ثم لم يكن من أصوله « أن يدع ما لقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله و يأخذ على يده في عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذي ذكرنا فهدى ضالا ، وألان قاسيا، وهذب خشنا ، وعلم جاهلا ونبه خاملا، وأثار الى العمل كسلا، وأقدر عليه وكلا، وأصلح من الخلق فاسدا ، وروج من الفضيلة كاسدا ، ثم جمع متفرقا، ورأب متصدعا، وأصلح مختلا، ومحا ظلما، وأقام عدلا ، وجدد شرعا، ومكن الاحكام التي دخلت فيه نظاما امتازت به من سواها ممن لم يدخل فيه ، فكان الدين بذلك عند أهله كمالا للشخص وأنفاقا في البيت ونظاما للملك ، [illegible] آثار النعمة عليهم في جميع شؤونهم ولم يفت الطم حظ من عنايته بل كان قائده في جميع وجوه سيره . فان شاء قائل ان يقول ان الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ولا تفصيل سياسة الملك ولا طرق المعيشة في البيت لم يسعه أن ينكر انه أوجب عليهم السعي الى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية وأوجب عليهم ان يحسنوا فيه وأباح لهم الملك وفرض عليهم ان يحسنوا الملكة وما ظنك بدين يقول خليفته الثاني وهو في المدينة من بلاد العرب « لو ان سخلة بوادي الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر » و يقول خليفته الرابع « أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش ؟ » أي خشونته يريد بذلك أن يساوي المساكين في العيش ليكون قدوة الاغنياء في الاحسان وأسوة الفقراء في حسن الصبر

هكذا كان الاسلام مهمازا للمسلمين يحثهم الى جلائل الاعمال ، ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به في استغراق الاحوال ، وتقويم الافكار وعاطفا يعطف قلوبهم على الامم بالعفو والمرحمة وحسن المعاملة حتى رضيتهم الارض سادة لها

وقادة لسكانها وكان من أمرهم وأمره ما هو معلوم

أفبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى ما رضيه هذا المرشد الحكيم ويمقت ما مقته؟ أيدهشه ان يرى المسلم يهزأ بكل مالم يعتقده سائغا في دينه وان كان فيه ملك الارض أو ملكوت السموات بعد ما شهد المسلم من أثر نعمة الله عليه في هذا الدين ماشهد؟ لاعجب في ذلك فانه نتيجة ضرورية ينساق اليها الامر بنفسه بحكم سنة الله في خلقه

وأسفا !! لم يبق للمسلم من الدين الاعلاقة في اما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه، وتغير في مداركه طبعه، وتبدلت في فهمه حقيقته، وانطمست في نظره طريقته، وحق فيه قول علي كرم الله وجهه « ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا »

لاأبحث اليوم في الاسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم الى ماذكرت ولكن أقول ولا أخشى منكرا لما أقول، قد دخل على المسلم في دينه ماليس منه، وتسرب في عقائده من حيث لا يشعر مالا يمس أصله بل مايهدم قواعدها ويأتي على أساسها . عرضت البدع في العقائد والاعمال، وحلت محل الاعتقاد الصحيح، وأخذت مكان الشرع القويم، وظهرت آثارها في أعماله، وعم شؤمها جميع أحواله

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » أولم يصح فالقرآن يؤيد معناه، وعمل الأولين من المسلمين يحقق صحة ماحواه، فالرجل والمرأة سواء في الخطاب التكليفي، وكانا سواء في علم مايجب عليهما من فرائض الاسلام، وخصال الايمان، وفي طلب العلم بما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف في كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده حتى لم يبق باب من أبواب العلم الادخل منه بقدر الاستطاعة ومايسمح الزمان . ضل المسلم بعد ذلك في معنى الدين فظن الرجل ان غاية مايفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم في صورة ادائها اما مايتعلق بسر الاخلاص فيها ووسيلة قبولها عند الله فذلك مما لا يخطر له

يال الا القليل النادر اما اداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الخصال الجليلة مما جعله الاسلام غاية العبادات وثمرة الاعمال الصالحات فهو مع أنه أم علوم الدين مما لا تتوجه اليه عزيمة ، ولا تنصرف نحوه ارادة ، اللهم الا من أشخاص قلائل مشردين في أطراف الارض لا يرقي بهم أمة ، ولا تسمو بهم كلمة امامن يقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا الى فريقين

الاول من يظن أنه وارث علوم الدين والقائم بحفظها وقد قل افراده في معظم البلاد الاسلامية ولم يبق منه الا رسوم لا يكاد يدركها نظر الناظر والمشتغلون منهم في بعض البلاد كمصر والاستانة فانما حظ الذكي منهم وقليل ماهو ان ينظر في كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان و يفهمها بمعنى أن يثق بأن هذا اللفظ دال على ذاك المعنى ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم فكان مثلهم مثل من ورث سلاحا فكان همه أن ينظر اليه ويملأ عينه منه ولا عليه بعد ذلك ان يستعمله أو يزيل الصدأ عنه فلا يلبث أن يأكله الصدأ ويفسده الخبث ويحسب أن الذين يصدهم وراء ما عرفوا من العلوم النافعة ومن رأي هؤلاء أن لا شأن لهم مع العامة ولا يجب عليهم أن يأمروا بمعروف ولا ان ينهوا عن منكر وقد ارتكبوا بذلك خطأ في فهم دينهم لا يساويه في سوء عاقبته خطأ والكثير منهم بل الاغلب من سوء الفهم في الدين مالا حاجة الى عده ولا يخفى ان ما يحصله هذا الفريق في العلم لا يظهر له ادنى أثر في صلاح الامة كما هو مشهود

والفريق الثاني من يهيؤه أولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال اوسافل وافراد هذا الفريق ان كثيروا أو قلوا يحصلون مبادي العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ثم يحصل كل واحد مايه ينال المنصب الذي يعده له والده على أن ما يحصل اما لفظ يحفظ أو خيال يخزن والمدار على الوصول إلى ورقة الشهادة ومن هؤلاء من يذهبون الى أوروبا لاستكمال التربية فيها ولا غاية لهم سوى هذه الغاية فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها وحصر همه على العمل فيها ومن لم يجد وقف على الابواب ينتظرها فاذا مل الانتظار أو تقضي زمن العمل وجدته

في قهوة أو ملهى يسرف في أوقاته ويفسد في أدواته، والصالحون منهم وقليل ماهم لا يهمهم شأن العامة شقيت أو سعدت هلكت أو قامت فاي آثر لما نطلبه هؤلاء يظهر في الامة وأستثني منهم شواذ في كل بلد على ضعفهم يرجى ان ينمو عددهم ويجني الامم ثمار أعمالهم . هذا شأن الرجال مع العلم

أما النساء فقد ضرب بينهن و بين العلم بما يجب عليهن في دينهن أو دنياهن بستار لا يدرى متى يرفع ولا يخطر بالبال ان يعلمن عقيدة أو يؤدين فريضة سوى الصوم وما يحافظن عليه من الفقه فانما هو بحكم العادة ومحارس الحياء وقليل جداً من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام وحشو اذهانهن الخرافات وملاك احاديثهن الترهات اللهم الا قليلا منهن لا يستغرق الدقيقة عدهن وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلما يعدها الجنة ويمنيها السعادة

اخطأ المسلم في فهم معنى التوكل والقدر فمال الى الكسل وقعد عن العمل ووكل الامر الى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها ويظن انه بذلك يرضي ربه ويوافي رغائب دينه

اخطأ المسلم في فهم ما ورد في دينه من ان الله تعالى اختار الامم وان العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر فظن ان الخير ملازم لعنوان المسلم وان رفعة الشأن ثابتة فقطه وان لم يتحقق شيء من معناه فان أصابته مصيبة أو حلت به رزية تسلى بالقضاء وانتظر ما يأتي به الغيب بدون ان يتخذ وسيلة لدفع الطاريء أو ينهض الى عمل لتلافي ما عرض من خلل ، أو مدافعة الحادث الجلل، مخالفا في ذلك كتاب الله وسنة نبيه

اخطأ المسلم في فهم معنى الطاعة لأولي الأمر والانقياد لاوامرهم فالقى مقاليده الى الحاكم ووكل اليه التصرف في شؤونه ثم أدبر عنه حتى ظن ان الحكومة يمكنها القيام بشؤونه جميعها من ادارة وسياسة بدون ان يكون لها منه عون سوى الضريبة التي تفرضها عليه ومن رأى حزن الآباء اذا طلب ابناؤهم لاداء الخدمة العسكرية وما يبذلونه من السعي في تخليصهم منها حكم بان ما يعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل وعرف ان تفهم

بالحاكم قد بلغت الى حد التأليه من حيث ظنوه قادرا على كل شيء بدون عون من أحد وانقلبت تلك الثقة الى الادبار والتخلي عنه من حيث انهم تركوه وشأنه لا يساعدونه في حادث ، ولا يعينونه في أمر مهم ، اللهم الا اذا ارغموا على ذلك ومن ذا الذي يحسن عملا اذا ألجيء اليه بالرغم عنه ومن هنا انصرف المسلم عن النظر في الأمور العامة جملة وضعف شعوره بحسنها وقبيحها اللهم الا ما يمس شخصه منها

اما الحكام وقد كانوا اقدر الناس على انتياش الامة مما سقطت فيه فاصابهم من الجهل بما فرض عليهم في اداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الاعظم من العامة ولم يفهموا من معنى الحكم الا تسخير الابدان لاهوائهم واذلال النفوس لخشونة سلطانهم وابتزاز الاموال لانفاقها في ارضاء شهواتهم لا يرعون في ذلك عدلا ، ولا يستشيرون كتابا ، ولا يتبعون سنة ، حتى افسدوا اخلاق الكافة وحملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم في الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التي ما فشت في أمة الا حل بها العذاب

هذا كله الى ما حدث من بدع أخرى من مذاهب شتى في العقائد ، وطرق متخالفة في السلوك ، وآراء متناقضة في الشرائع ، وتقليد أعمى في جميع ذلك ، فتفرقت المشارب ، وتوزعت المنازع ، وعظم سلطان الهوى على ارباب النزعات المختلفة ، كل يجذب الى نفسه ، لا ينظر الى حق ، ولا يفزع من باطل ، وأعظم همه ان يظفر بخصمه وذلك الخصم هو ما يدعوه أخاه في الاسلام في معرض التشدق بالكلام

وزد على ذلك وهذا اكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في اعتقادهم وهي بدعة اليأس من انفسهم ودينهم وظنهم ان فساد العامة لا دواء له وان ما نزل بهم من الضر لا كاشف له وانه لا يمر عليهم يوم الا والثاني شر منه . مرض سرى في نفوسهم ، وعلة تمكنت من قلوبهم ، لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم وسنة نبيهم ، وتعلقهم بما لم يصح من الاخبار أو خطائهم في فهم ما صح منها وتلك علة من أشد العلل فتكا بالارواح والعقول وكفى في شناعتها قوله جل شأنه « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »

تبع هذه البدع جميعها واخرى يطول ذكرها خزال في الهمم ، وضعضعة في

العزائم، وفساد في الاعمال، يبتدىء من البيت وينتهي الى الامة ويمر في كل طبقة ويجول في كل دائرة خصوصا من دوائر الحكومات وما يرى به المسلمون من التعصب الديني الاعمى فانما عرض على اقوام في بعض البلاد الاسلامية تبعا لهذه البدع الضالة على انني لا اسلم انهم بلغوا فيه ادنى درجاته في الامم المسيحية شرقية كانت أو غربية والتاريخ شاهد لا يكذب

هـذا ما أصاب المسلمين في عقولهم وعزائمهم وأعمالهم بسبب ابتداعهم في دينهم وخطائهم في فهم أصوله، وجهلهم بأدنى أبوابه وفصوله، لهذا سلط الله عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها وينزل بهم من عقوبة الكفران مالا قبل لهم بدفعه الا اذا تداركهم الله بلطفه وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب، ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه، ويعده حجابا بين الأمم والمدنية، بل يعده منبع شقائهم وسبب فنائهم

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين في اواسط القرن الماضي من سني الهجرة في أقطار مختلفة من بلاد الروس والهند وبلاد العرب وفي مصر وكل منهم بحث في الداء وقدر له الدواء بحسب فهمه على تفاريق بينهم وآمالهم يلتقون يوماً من الأيام عند الغاية ان شاء الله

مقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شؤونه ويمكن ان يقال ان الغرض الذي يرمي اليه جميعهم انما هو تصحيح الاعتقاد وازالة ماطرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين حتى اذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الاعمال من الخلل والاضطراب واستقامت أحوال الافراد واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة وسرى الصلاح منهم الى الامة فاذا سمعت داعياً يدعو الى العلم بالدين فهذا مقصده، أو منادياً يحث على التربية الدينية فهذا غرضه، أو صائحا ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته، وهذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لامندوحة عنها، فان اتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه الى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ولا يسهل عليه ان يجد

من عماله أحداً ، واذا كان الدين كافلا بتهذيب الاخلاق وصلاح الاعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ولاهله من الثقة به ما يثناه وهو حاضر لديهم والعناء في ارجاعهم اليه أخف من احداث ما لا إلمام لهم به فلم العدول عنه الى غيره ؟!

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو الى الرجعة الى الدين سواء في مصر أو غيرها ان يثير فتنة على الاوربين أو غيرهم من الامم المجاورة للمسلمين غير ان بعض المسيحين اذا سمع قولا في الدين أعرض عن فهمه ، وأنشأ لنفسه غولا من خياله ، يخاف منه ويخشى غائلته ، يسميه باسم الدين . وبعضهم يظن انه لو انتبه المسلمون الى شؤونهم ، ورجعوا الى الاخذ بالصحيح من دينهم لاعتصموا بجامعتهم، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم ، واستغنوا عمن أدخلوه في أعمالهم من غيرهم ، فيحرم الكثير من المسيحين تلك المنافع التي نالوها بغفلتهم ، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه فانه يظنه هذا يعتقده غاش مغرر ، ومحتال متلصص ، وسوء ظن بالمسلمين أيضاً فان أهل الوطن الواحد لا يستغني بعضهم عن بعض مهما ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الاعمال وغاية الامر أن [illegible] المال اليوم بدون حق يصبح وهو لا ينال الا بحق والاجنبي الذي كان ينفق الواحد ويربح المئة يرجع الى الاعتدال في الكسب ، ويحتاج الى شيء من التعب في استدرار الربح ، وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الاسلامية وهي في عنفوان قوتها ، والاجانب يطلبون الكسب في ارجائها وهي في أرفع مقام من عزها

نعم يعرض في طريق الدعوة الى الدين على هذا الوجه أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم آخر بسوريا أو بالهند أو بالعجم أو بافغانستان أو بغير هذه الاقطار لان مرض الجميع واحد وهو البدعة في الدين فاذا نجح الدواء في موضع كان السليم أسوة للمريض في موضع آخر أما السعي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم فلم يمر بعقل أحد منهم ولو دعا اليه داع لكان أجدر به ان يرسل الى مستشفى المجانين

يكتب بعض أرباب الاقلام من المسلمين في حكمة الحج ويقول انه صلة بين المسلمين في جميع اقطار الارض ومن أفضل الوسائل للتعاون بينهم فعليهم

ان يستفيدوا منه وهو كلام حق لكن لا ينبغي أن يفهم على غير وجهه فان الغرض منه ان يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين حتى يستعين بعضهم ببعض على اصلاح ما فسد من عقائدهم أو أضل من أعمالهم وفي مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء وهو أمر معهود عند جميع الامم التي تدين بدين واحد خصوصا عند الاوربيين

يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ويعلقون آمالهم بهمته وكثير منهم يدعو الى عقد الولاء له وهذا أمر لا ينبغي ان يدهش أحدا فان هذه الدولة هي أكبر دول الاسلام اليوم وسلطانها أفخم سلاطينهم ومنه يرتجى انقاذ ما بين يديه من المسلمين لما حل بهم وهو أقدر الناس على اصلاح شؤونهم وعلى مساعدة الداعين الى تمحيص العقائد وتهذيب الاخلاق بالرجوع الى أصول الدين الطاهرة النقية فأي شيء في هذا يزعج أوربا حتى تتعدى على هضم حقوق المسلمين اذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول موسيو هانوتو

بقي الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد يقول فيه موسيو هانوتو ان أوربا لم تتقدم الا بعد ان فصلت السلطة الدينية من السلطة المدنية وهو كلام صحيح ولكنه لم يدر ما معنى جمع السلطتين في شخص عند المسلمين . لم يعرف المسلمون في عصر من الاعصر تلك السلطة الدينية التي كانت للبابا على الأمم المسيحية عند ما كان يعزل الملوك ويحرم الأمراء ويقرر الضرائب على الممالك ويضع لها القوانين الالهية وقد قررت الشريعة الاسلامية حقوقا للحاكم الأعلى وهو الخليفة أو السلطان ليست للقاضي صاحب السلطة الدينية وانما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية والمدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية وأهل الدين قائمون بوظائفهم وليس له عليهم الا التولية والعزل ولا لهم عليه الا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ورفع المظالم ان أمكن وهذه الدولة العثمانية قد وضعت في بلادها قوانين مدنية وشرعت نظاما لطريقة الحكم وعدد المحاكم ومقيم وسمحت بأن يكون في محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التي

أما عاملهم مع الاوروبيين فانا نراهم اذا أحسوا بعدل من انكليزي ذكروه ، أووصل اليهم معروف من أي عامل أوربي شكروه ، بل ازيدك على هذا ان المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها ان يتولى تحقيق مظلمته انكليزي كما شوهد ذلك كثيراً في شكاياتهم وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر وهو ليس بحاكم رسمي فأي دليل على الثقة أكبر من هذا

ليس بقليل في مصر من يثق بالفرنساويين ومن له بينهم اصدقاء يركن اليهم ويعتمد بولائهم وموسيو هانوتو وصاحب الجريدة يعرفان ذلك

كثيرا ما أغرى الاوربيون من فرنساويين وأمريكيين من أرباب المدارس في مصر شبانا من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول في الديانة المسيحية وفروا ببعضهم من القطر المصري الى البلاد الاجنبية وأحرقوا كبد والديه ومع ذلك لا نزال نرى المسلمين يرسلون أولادهم الى مدارسهم وناظر المعارف عندنا وزير مسلم وأولاده يتربون في مدارس الجزويت وكثير من أبناء الاعيان في مدارس الفرير فأي ائتمان يفوق هذا الائتمان

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالاوربيين خصوصا في المعاملات حتى أساء أولئك الاوربيون استعمالها وانتهزوا فرصتها وسلبوا كثيرا من أهل الثروة ما كان بأيديهم ومع ذلك فهم لا يزالون يأمنونهم و يغالون في الاستئمان اليهم ويقلدونهم فيما يخالف دينهم وعوائدهم فماذا يطلب من الثقة فوق هذا !!

هل يشكو عقلاء المسلمين في مصر من شيء مثل ما يشكون من الثقة العمياء بالاجنبي من غير تمييز فيما هو عليه من أخلاص أوغش من صدق أو كذب من أمانة أو خيانة من قناعة أوطمع حتى آل الامر بالناس الى ما آلوا اليه من خسارة المال وسوء الحال فهل هذا هو فقد الثقة بالاوربيين والعثمانيين المسيحيين الذي يعنيه حضرة صاحب الجريدة وجناب موسيو هانوتو ؟

وأما العثمانيون من غير المصريين فاذا ارتقينا الى الدولة وسلطانها أيده الله وجدنا أن نظام الدولة قاض باستعمال المسيحيين في ادارتها وحكمها في كل بلد فيه مسيحيون ، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ما يناله المسلمون

هل هم مسلمو الروسيا وثقتهم بحكومتهم وثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد حتى ان الدولة الروسية تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الارثوذكسي

هل هم الافغانيون واخلاص أميرهم في مصافاة الانكليز أشهر من أن يذكر ولا ينفي اخلاصه حرصه على بلاده ومحافظته على مصلحتها

هل هم الفرس واستئمانهم الى السياسة الروسية لا يجهلها أحد ؟

هل هم المراكشيون وهم بمعزل عن كل مايسمى سياسة بل هم في غفلة عن الدين والدنيا جميعا شغل بعضهم ببعض فلا ينفكون يتقاتلون ويتسالبون حتى يقضي الله فيهم بقضائه

هل هم التونسيون وقد أثنى عليهم موسيو هانوتو بما هم أهله وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنساوية لمجرد ما اطلقت لهم الحرية في دينهم

لعله لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه وكما يفيده قوله انه لا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم فاما المصريون فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقة بالاوربيين والمسيحيين العثمانيين فانهم يشاركون في العمل مواطنيهم من الاقباط في جميع مصالح الحكومة ماعدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين وهم معهم على غاية الوفاق خصوصا أهل الاخلاص وسلامة النية منهم ولكل من الفريقين اصدقاء وأحبة في الفريق الآخر ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية الا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين وآدابهم في دينهم أو في منافعهم الخاصة بهم لا لشيء سوى التعصب الاعمى ولا نطلب على ذلك شاهدا اقرب من صاحب الجريدة التي يحادثه موسيو هانوتو إنه بعد أن كان على المسلمين أثناء الحرب الروسية العثمانية و بعد ان آن ما أتى عقب الحوادث العرابية شهد له المسلمون بأنه صديقهم والساعي في خيرهم كما افتخر بذلك مرارا في جريدته وان كانت لهاليهم هنات لا تزال تبدو من فيه الى وقت ذلك الحديث فأين فقد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين في مصر ؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لانه مسيحي عثماني ؟؟ هل حرم أحد حق المحاماة أو انشاء الجرائد أو المطابع أو اقامة المصانع أو تأسيس البيوت التجارية لانه مسيحي عثماني ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد

عليها ولكن عمدفي معاملته ما يفوق الرسمي بدرجات فان سلمنا ان سياسة أوربا ليست بدينية من جميع وجوهها فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هي كذلك ومسلموها تبع لها

فان قال قائل : ان حوادث الارمن لم تزل في ذاكرة أهل الوقت وينسبون وقائعها الى التعصب الديني بل يقولون ان أسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب ؛ أمكن ان يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحي منها ومن غيرها ومع ذلك فان كثيرا من الارمن في خدمة الدولة الى اليوم وهم بذلك موضع ثقتها وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من ان منشأ تلك الوقائع التعصب الديني فان المسيحيين سواهم في الممالك العثمانية أنعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بأعيننا ولو أنصف الاوربيون لأمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذي يظهر زمنا بعد زمن في تلك الاقطار ولسهل عليهم ان يعرفوا ان منبعه في أوربا لا في آسيا

لا ينبغ علي أن أقول ان المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية في التعليم والتربية وسائر وجوه الخير تمنى المسلمون ان يساووهم فيه فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لا يليق بالكاتب مثل صاحب الجريدة ان يروي عن المسلمين كافة مثل ما رواه فان ذلك مما يغري المسلمين والمسيحيين جميعاً واني اعتقد انه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه الا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه فاستحضر في صورهم جميع المسلمين وساستهم

ليعلم موسيو هانوتو ان جميع ما يقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لا حقيقة له الا في ذهن القائل أو الكاتب فلا ينبغي ان يعول على مثله في أحكامه وعليه ان يحقق الأمر بنفسه ان كان يهمه ان يتكلم فيه

وأما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع انه خدمهم وقوله فكيف يجاملهم مع من لم يخدمهم فتبين له الوجه فيه ليزول عنه ما سبق الى فهمه : لو اقتصر على الكلام في السياسة وبحث في علاقة المسلمين مع حكومته ولم يسط على الدين نفسه في أصلين من أهم أصوله لما أخذ عليه أحد الامن ينتقد رأيه من جهة ما هو صحيح أو غير صحيح ولكنه لم يكتف بذلك وطعن في عقيدة التوحيد وبين رداءة أثرها في المسلمين واشتمل كلامه على عقيدة القدر وبين سوء ما جرت اليه فيهم وهو بذلك

على نسبة عددهم أو فوق ذلك وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع في الدولة ما لم ينله مسلم وسفارات الدولة ومناصبها العالية لاتخلو من المسيحيين ·

اقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوسامات الشرف واختصاصه لبعضهم بشرف المثول في حضرته والاحسان اليه برفيق المخاطبة لاينقطع ذكره من الجرائد، صاحب الجريدة التي نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك فقد جاهر زمنا ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ثم سهل عليه وهو مسيحي ان يكون موضع ثقة الجناب السلطاني حتى أدناه منه وقبله في مجلسه وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التي نشرها في جريدته من نحو شهرين آنوهو به لنصرة مسيو هانوتو ثم والى عليه احسانه بالرتب والنياشين وغيرها فاهي الثقة ان كان هذا فقدها ؟

أما سياسة الدولة الخارجية فالفرنساويون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة المانيا وهي دولة مسيحية ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة اسلامية وكانت للدولة ثقة لاتريد... سياسة الانكليزية ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من ضعف سياسة موسيو غلادستون فاعقبها اضطراب في تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة ثم انا نراها اليوم تتراجع وفي رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ويودون لو مالت اليها سياسة الدولة وهم مسلمون

والذي أحب أن يعرفه موسيو هانوتو ان سياسة الدولة العثمانية مع الدول الاوربية ليست بسياسة دينية ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها الى اليوم وانما كانت في سابق الأيام دولة فتح وغلبة وفي آخر ايامها دولة سياسة ومدافعة ولا دخل للدين في شيء من معاملاتها مع الأمم الاوربية

امبراطور المانيا جاء الى سوريا للاحتفال بفتح كنيسة فبالغ السلطان في الاحتفال به الى الحد الذي اشتهر وبهر . يجيء الامراء المسيحيون من الأوربيين الى الاستانة فيلاقون من الاحتفال مالا يلاقونه في بلاد مسيحية وينفق في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون في حاجة اليه أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم ؟ وهل بعد المودة الا الثقة بصاحب المودة ؟ كان يمكن للسلطان ان يكتفي بالرسميات ولا يزيد

عليها ولكن عومل في معاملته مايفوق الرسمي بدرجات فان سلمنا ان سياسة أوربا ليست بدينية من جميع وجوهها فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هي كذلك ومسلموها تبع لها

فان قال قائل : ان حوادث الارمن لم تزل في ذاكرة أهل الوقت وينسبون وقائعها الى التعصب الديني بل يقولون ان أسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب : أمكن ان يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحي منها ومن غيرها ومع ذلك فان كثيرا من الارمن في خدمة الدولة الى اليوم وهم بذلك موضع ثقتها وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من ان منشأ تلك الوقائع التعصب الديني فان المسيحيين سواهم في الممالك العثمانية انعم حالا من المسلمين كما شاهدناه باعيننا ولو أنصف الاوربيون لأمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذي يظهر زمنا بعد زمن في تلك الاقطار ولسهل عليهم ان يعرفوا ان منبعه في أوربا لا في آسيا

لا يبعد علي أن أقول ان المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية في التعليم والتربية وسائر وجوه الخير يتمنى المسلمون ان يساووهم فيه فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لايليق بكاتب مثل صاحب الجريدة ان يروي عن المسلمين كافة مثل ما رواه فان ذلك مما يضر المسلمين والمسيحيين جميعا واني اعتقد انه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه الا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه فاستحضر في صورهم جميع المسلمين وسياسيهم

ليعلم موسيو هانوتو ان جميع مايقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لاحقيقة له الا في ذهن القائل أو الكاتب فلا ينبغي ان يعول على مثله في أحكامه وعليه ان يحقق الأمر بنفسه ان كان يهمه ان يتكلم فيه

وأما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع انه خدمهم وقرله فكيف يحالهم مع من لم يخدمهم فنبين له الوجه فيه ليزول عنه ما سبق الى فهمه : لو اقتصر على الكلام في السياسة وبحث في علاقة المسلمين مع حكومته ولم يسط على الدين نفسه في أصلين من أهم أصوله لما أخذ عليه أحد الامن ينتقد رأيه من جهة ماهو صحيح أو غير صحيح ولكنه لم يكتف بذلك وطعن في عقيدة التوحيد وبين رداءة أثرها في المسلمين واستل سلاحه على عقيدة القدر وبين سوء ماجرت اليه فيهم وهو بذلك

يثبت ان المسلمين لا يزالون منحطين ماداموا مسلمين وهو ما لا يرضاه أحد منهم

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفي انحرافهم عن أصول دينهم واكتفى بتعنيفهم على اهمالهم لشؤونهم وغفلتهم عن مصلحتهم كما جاء في حديثه الذي نحن بصدده لما وجد من المسلمين إلا معتبرا بقوله متعظاً بنصيحته والسلام



﴿ قول اللورد كرومر في الجامعة الاسلامية والشريعة ﴾

(مأخوذ من ترجمة ادارة المقطم لتقريره الاخير عن سنة ١٩٠٦)

اذا قلنا ان الحركة الوطنية المصرية الحالية ليست الا حركة الى الجامعة الاسلامية لم يطابق قولنا الواقع من كل وجه ولكن لا ريب في كون هذه الحركة مصبوغة صبغاً شديداً بصبغة الجامعة الاسلامية . وهذا الامر كان معلوما عندي منذ زمان طويل وقد علمه كثيرون من الاوربيين الآن كما يظهر مما يرد في الجرائد المحلية ولكن علمهم به ابطأ كثيراً . ويسهل علي ايراد كثير من الشواهد والادلة على صحة هذا القول اذا اقتضى الامر ايرادها (١) ولكن اقول الآن ان الحوادث التي حدثت في الصيف الماضي قد كشفت عنصراً جديداً من عناصر الحالة المصرية . لانه ولو سلم الانسان بما لا ريب في صحته وهو ان الدين أعظم قوة محركة في الشرق (٢) وان الشرقيين لا تحلو لهم حكومة كالحكومة الثيوقراطية(٣)

---

(١) اشير هنا الى كتاب ورد عليّ في الربيع خالياً من الامضاء ونشر في ورقة من الاوراق التي عرضت على البرلمان فقد ارتاب بعضهم في صحته ولكن لا ريب عندي في ذلك على الاطلاق وقد استغربت شدة اهتمام الناس بامره وخصوصا في بلاد الانكليز فاني ما ارسلته الى لندن الا على سبيل المثال لافكار ومعان ألفتها منذ زمان طويل ولم يبق عندي ريب في وجودها ولكنه مفرغ في عبارات ابلغ من المعتادة (٢) أقصد بالشرق البلاد الشرقية التي لي معرفة بها لا الصين واليابان (٣) اراد بالحكومة الثيوقراطية الحكومة التي يعتقد اتباعها ان الله هو الحاكم الأصلي فيها وان سنتها وشرائعها هي اوامره ومناهيه لا سنن البشر وشرائعهم وان العلماء ورجال الدين هم خدمة الله ومأموروه فيها (المترجم)

فقد كان يجوز له مع ذلك ان ينتظر ان تذكر المصريين لما آساهم في الماضي واعتبارهم لتقدم بلادهم في الثروة واليسر في الحال تقدما عظيما جدا بالنسبة الى ما جاورها من الولايات العثمانية يحولان دون نمو الجامعة الاسلامية في بلادهم اكثر مما حالا في الظاهر وانما قلت « في الظاهر » لاني رغما عن كل الظواهر لا ازال غير مقتنع بأن الميل الى الجامعة الاسلامية متأصل كثيرا في الهيئة الاجتماعية المصرية بل اني واثق انه لو كان المصريون يعتقدون امكان اخراج الآراء المتعلقة بتلك الجامعة من القوة الى الفعل لانقلب الرأي العام عليها انقلابا عظيما سريعا

ومهما يكن من ذلك فقد اتضح ان الجامعة الاسلامية عنصر من عناصر الحالة المصرية التي يجب حفظها في البال فلذلك يحسن بنا فهم المقصود منها

المقصود من الجامعة الاسلامية بوجه الاجمال اجتماع المسلمين في العالم كله على تحدي قوات الدول المسيحية ومقاومتها فاذا نظر اليها من هذا الوجه وجب على كل الامم الاوربية التي لها مصالح سياسية في الشرق ان تراقب هذه الحركة مراقبة دقيقة لانها يمكن ان تؤدي الى [illegible] الشغب الديني في جهات مختلفة من العالم . وقد أوشكت هذه [illegible] في الربيع الماضي . على اني ارى قوما يقولون ان القلق الذي جرت الاشارة إليه في مجلس النواب في الصيف الماضي كان وهميا فانا لا اوافقهم على هذا القول مطلقا لان طبع الطبقات الدنيا من اهل مصر ولا سيما سكان المدن متقلب كثيرا . فهاجوا من قراءة المقالات التي كانت تصدر في الجرائد الاسلامية طافحة بالاغراء والكذب هيجانا شديدا دفعة واحدة وسكنوا دفعة واحدة كذلك عند ما زيدت عساكر جيش الاحتلال ولطفت الجرائد الاسلامية لهجتها بتشديد العقلاء من أهل بلادها النكير عليها . ولكن لا ريب عندي ان البلاد كانت عرضة لخطر حقيقي برهة من الزمن فقد جاءتني اخبار وتقارير عديدة عن تهديد المسيحيين والاوربيين . ثم ان الاخبار الغامضة المبهمة التي تشيع قبل حدوث الفتن والقلاقل في الشرق عادة شاعت شيوعا يستحق الاعتبار حتى تولى الرعب الاوربيين الساكنين في القطر فجعلوا يتقاطرون من القرى الى المدن ولم يكن هذا الرعب لغير سبب معقول فقد شرحت في تقريري عن

سنة ١٩٠٥ (وجه ١٧ — ١٩) ما جرى في الاسكندرية اواخر سنة ١٩٠٥ حين افضى وقوع الخصام اتفاقا بين رجلين يونانيين الى شغب عظيم لم يلبث ان انقلب هيجانا على المسيحيين . فلو اتفق حدوث حادثة من هذا القبيل في ابان الهيجان الذي حصل بسبب حادثة الحدود بين تركيا ومصر — وحدوثها لم يكن امرا بعيدا — لامكن بل لترجح انها كانت تفضي الى عواقب وخيمة

اما ما يقوله قوم آخرون من ان ذلك القلق آت عن سياسة الحكومتين البريطانية والمصرية في أمور مصر الداخلية فخال من كل أثر للصحة لان القلق كله وليس بعضه فقط نتج عن تصديق خلق كثير من الاهالي الذين كانوا تحت تأثير الجامعة الاسلامية لما كان يقال لهم من ان ما كان يجري حينئذ انما كان يقصد به التعدي على رأس الديانة الاسلامية

ولنعد الى ما كنا عليه فاقول واني ان كنت لا أصدق أن الجامعة الاسلامية تنتج غير اضطرام نيران التعصب في امكنة متفرقة كما سبقت اليه الاشارة فذلك اولا لاني لا اصدق ان المسلمين يتحدون معا ويتعاونون متى خرجت المسألة عن القول الى الفعل ، وثانيا لاني واثق بقوة اوربا واقتدارها عند الاقتضاء على تلافي هذه الحركة من الجهة المادية وإن تكن غير قادرة على ذلك من الجهة الروحية

والجامعة الاسلامية أيضاً عبارة عن معان أخرى غير معناها الاصلي ولكنها لاتخلو من علاقة به . وهذه المعاني اهم بالنظر الى ما نحن فيه من المعنى الاعم الذي سبقت الاشارة اليه

فنها أولاً في مصر الخضوع للسلطان وترويج مقاصده وهذا المعنى يدل على دخول عنصر جديد في حالة مصر السياسية . فقد كانت الحركة الوطنية المصرية دائرة على مضادة الترك الى عهد قريب اذ الثورة العرابية كانت في الاصل على تركيا والترك . اما الآن فيلغني ان زعماء الحركة الوطنية يقولون انهم لا يقصدون توثيق عرى الاتحاد بين تركيا ومصر وانما يقصدون حفظ سيادة السلطان على مصر . ولكن قولهم هذا يختلف عما كانوا يقولونه منذ عهد قريب جدا اختلافاً جليا بحيث لا يتمالك الانسان عن الظن بان قولهم الآخر انما خطر على بالهم بعدما علموا

انهم اذا وسعوا نطاق العلائق التركية ابعدوا عنهم اميالاً يتمنون قربها منهم ودوامها معهم . ولكن ليس من الانصاف تقييد الحزب الوطني جملة باقوال يلقيها افراد قليلون غير مسؤولين على عواقبها . فاذا سلمنا بأن القول الاخير هو رأي الحزب الوطني الصحيح فعندي عليه ان سيادة السلطان على مصر لم ينازع فيها قط على ما اعلم ولا يحتمل ان يصيبها شي ما دام كل ذوي الشأن في الفرمان - الذي هو اتفاق بين فريقين كما لا يخفى - لا يفعلون شيئاً خارجاً عن دائرة حقوقهم . فحادثة سينا انما بلغت ما بلغت من الاهمية وعظم الشأن لما خيف من خرق حرمة الفرمان وما يتصل به من المستندات الرسمية المحسوبة جزأ منه على وجه يعود بالضرر على القطر المصري

وثانياً ان الجامعة الاسلامية تستلزم بالضرورة تهييج الاحقاد الجنسية والدينية الا في ما ندر . فلاشك في ان كثيرين من انصارها يتصرونها عن حرارة دينية حقيقية وآخرين يودون لو امكنهم ان يفرقوا بين القضايا السياسية والدينية وبينها وبين الجنسية أيضاً اما لانتسابهم الى الدين [illegible] أو اوشكوا ان يحكموا اللاادريين أو لكون اغراضهم سياسية أو لكونهم يقصدون عين الغرض للاقتناع بها أو لكونهم اتبعوا الآراء الحديثة عن وجوب التسامح في الدين كما هو مأمولي . ولكن متى كانت هذه رغبتهم ومقاصدهم فلا شك عندي انهم يعجزون عن تنفيذها لانهم ان لم يقنعوا عامة المسلمين باقوالهم انهم من المسلمين المجاهدين لم يستطيعوا ان يحولوا انتباههم اليهم ولا ان يكتسبوا ميلهم أيضاً . فالضرورة تقضي عليهم بتهييج الاحقاد الجنسية أو الدينية اما ظاهراً أو خفية ليرقوا بأنهم السياسي

وثالثاً ان الجامعة الاسلامية تستلزم تقريباً السعي في اصلاح أمر الاسلام على النهج الاسلامي وبعبارة أخرى السعي في القرن العشرين في اعادة مبادىء وضعت منذ ألف سنة(١) هدى لهيئة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة . وهذه المبادىء منها ما يجيز الرق ومنها ما يتضمن سنناً وشرائع عن علاقات الرجال والنساء مناقضة لآراء أهل هذا العصر ومنها ما يتضمن أمراً أهم من ذلك كله وهو افراغ القوانين

(١) المنار : اشتهر أن العبارة بالانكليزية « منذ أكثر من ألف سنة »

المدنية والجنائية والملية في قالب واحد لا يقبل تغييرا ولا تحويرا وهذا ما وقف تقدم البلدان التي دان أهلها بدين الاسلام

فلهذه الاسباب وبقطع النظر عن كل الاعتبارات السياسية لا يجد المهتمون باصلاح مصر بدا من استنكار الدعوة الى الجامعة الاسلامية . ويجب أيضاً بذل أقصى العناية في السهر على كل ميل طبيعي جائز الى الجامعة الوطنية لكيلا تجتنبه على غير انتباه من صاحبه هذه الحركة – حركة الجامعة الاسلامية – التي هي من أعظم الحركات المتقهقرة فلا تستحق ان يميل أحد اليها . لانه قد يعسر على الانسان ان يميز شبح الجامعة الاسلامية اذا تجلبب بجلباب الجامعة الوطنية اه كلام اللورد

(المنار) ان البحث في هذا الفصل الذي أقام المسلمين هنا وأقعدهم يحق ينحصر في ثلاث مسائل (١) الجامعة الاسلامية نفسها وما عده من أسباب استنكارها وهو (٢) اجازة الرق و (٣) منافية علاقات الرجال بالنساء لآراء أهل العصر و (٤) الجمود على قوانين وضعت لأهل البداوة

الجامعة الاسلامية

يعرف اللورد كما يعرف جماهير القراء ان السيد جمال الدين الافغاني كان أشهر دعاة ما يسمونه الجامعة الاسلامية ذكراً ، وأقواهم صوتاً ، وأكثرهم سعياً ، وأشدهم اضطلاعاً ، وقد اشتهر عنه أنه كان يحاول جمع كلمة المسلمين على خليفة واحد أو سلطان منهم والصحيح انه لم يكن يدعو الى ذلك ولم يخطر له على بال ان هذا مما تتناوله يد الامكان بل قال في معرض تنبيه المسلمين وحثهم على الوحدة « ولست أعني ان يكون لهم امام واحد فان هذا ربما كان متعذرا وانما أعني أن يكون امامهم القرآن »

وكان الاستاذ الامام أعظم أنصاره في عمله بمصر وأوربا وقد استقر رأيه بعد السعي معه والعمل من طريق السياسة والدين معاً على قاعدة « ما دخلت السياسة في عمل الا وأفسدته » وكثيراً ما قال لنا ان السيد جمال الدين كان أقدر من عرفنا على الاصلاح ، وانه لولا اشتغاله بالسياسة لعمل عملا عظيما ، وان الاساس الذي

يجب ان يبنى عليـه اصلاح حال المسلمين هو تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والبدع ، واعتباره من موازين العقل البشري التي وضعها الله تعالى لترد من شططه وتقلل من خبطه ، وأنه بهذا الاعتبار يعد صديق العلم وباعثاً على البحث في اسرار الكون . ويتوقف هـذا على اصلاح أساليب اللغة العربية واحيائها في الألسنة والاقلام

وقد عرف اللورد الاستاذ المرحوم وحمد طريقته هذه وشبهها في بعض تقاريره بطريقة السيد أحمد خان في الهند وقال ان حزبه جدير بالمساعدة والتنشيط من الأوربيين . والذي نعرفه نحن بعد السير على هـذه الطريقة تسع سنين وأشهرا ان طلاب الاصلاح الاسلامي في مصر وسوريا وتونس كلهم على طريقة الشيخ محمد عبده كما ان معظم المصلحين في الهند على طريقة السيد أحمد خان ولا يوجد في غير هذه الأقطار حركة اسلامية الى الاصلاح الا في روسيا وإيران فأما مسلمو روسيا فقد ثبت لدولتهم في الحرب الأخيرة وما أعقبته من الثورة أنهم خير رعاياها وأسلمهم قلوبا وهم الآن لا يطلبون من حكومتهم الا العدل والمساواة ، ومن أنفسهم الا العلم والثروة . وأما الفرس فحركتهم محصورة في اصلاح حال حكومتهم وليس بين هؤلاء ولا وأولئك و بين سائر المسلمين صلات سياسية ولا أحد منهم يقاوم الاوربيين وهم يسكنون الاحقاد لا يهيجونها . فالجامعة الاسلامية بالمعنى الذي يفهم من كلامه لا وجود لها في الأرض وانما يوجد في المسلمين دعوتان — دعوة اسلامية وتنحصر فيا بيناه آنفا وهو ترك البدع والجمع بين الدين و بين العلم والمدنية ، ودعوة وطنية أو سياسية وهي تنحصر في مطالبة أصحاب السلطة فيهم بما يرقي بلادهم ويحفظ حقوقهم فيها ولا علاقة لهذه الدعوة بالدين بل كثيرا ما تخالفه

نعم انه يوجد في كل بلاد من القوالين افراد يتخذون اسم الاسلام والجامعة الاسلامية والخلافة الدينية والخليفة الأعظم والعالم الاسلامي وغـير ذلك من الكلمات أناشيد تستمال بها النفوس لتعظيم القائل أو لبذل المال له وقد يوهم كلامهم شيئاً مما أشار اليه اللورد وانا جازمون بأن هؤلاء لا عمل لهم في الاسلام يخشى أو يرجى ، ولا دعوة لهم تطاع أو تعصى وانما مثلهم كمثل أصحاب تلك الاناشيد

في مدح الأولياء ولي الزهد في الدنيا التي يستعطفون بها الناس و يستقدون بها أكفهم ومن خشي منهم لنطله . وقد أغنانا عن التطويل في هذه المسألة ما نقلناه عن الاستاذ الامام رحمه الله تعالى وهو القول الفصل فيها

٢

﴿ مسألة الرق ﴾

يقول الورد ان الشريعة الاسلامية تجيز الرق، ونقول نعم إنها أجازته ولكنها ما فرضته فرضا ، ولا أوجبته إيجابا، ولا ندبت اليه ندبا، ولا استحبته استحبابا، بل نقول بعبارة أوجز انها لم تجعله كما يخشى الورد دينا يتقرب به الى الله فيقال ان المسلمين لا يتركونه بل أقرت البشر — وكلهم كانوا يسترقون — على ما في أيديهم من الارقاء وشرعت لهم العتق وتحرير الرقيق وجعلت ذلك دينا يتقرب به الى الله عز وجل فتارة على سبيل الوجوب والحتم الذي لا بد منه وتارة على سبيل الندب

ما أجازت الشريعة الاسلامية الرق الا لأنه قد يكون موافقا لمصلحة من يُسترقون كأن يقتل الرجال في حرب شرعية ويبقى النساء والأطفال بدون عائل ولا كافل فقد يكون من الخير والمصلحة في مثل هذه الحالة ان يسترقوا للعجز عن الاستقلال في الحياة فاذا تسرى الرجال بالنساء وولدن لهم كما هو الغالب زال رقهن اذ يحتم انتقالهن الى ملك آخر و يعتقن بموتهم ولا يكون حالهن معهم في الحياة دون حال الزوجات بالعقد واما الاطفال فانهم يكونون بمثابة الأولاد اذ المشروع في هذا الدين ان يكون الرقيق مساويا لمولاه وأهل مولاه في آكله ولبسه وعمله وورد في الحديث النهي عن تسميتهم بالعبيد والاماء ثم حثت الشريعة على العتق حثا شديدا وجعله كفارة لكثير من الخطايا ومن أفضل النذور ومحللا الحنث باليمين وهي مع تضييقها في الاسترقاق جعلت الرق خلاف الاصل حتى ان أي رقيق ادعى انه حر عدنه حرا بمجرد دعواه الا ان يثبت مدعي ملكه أصل رقيته (ومن أراد زيادة البيان في هذا فليرجع الى المجلد الثامن من المنار)

وجملة القول ان الاسلام لم يأمر بالاسترقاق ولكنه أمر بتحرير الارقاء وعتقهم ولم يوجب ذلك على الناس دفعة واحدة لما فيه من الحرج الشديد على المالكين

والارقاء جميعا فان السادة الذين تعودوا ان يقوم عبيدهم بجميع شؤونهم لا يمكنهم ان يتركوا هؤلاء العبيد دفعة واحدة لأن نظام معيشتهم يختل ، وشمل مصالحهم يتفرق ، كما ان العبيد الذين تعودوا على كفالة غيرهم لهم وكفايتهم أمر المعاش يصعب عليهم ان يعيشوا بالاستقلال اذا هم اعتقوا مرة واحدة كما حصل في أمريكا فان الحكومة لما أبطلت الرق تحير كثير من الارقاء في أمر معيشتهم ورضي كثير منهم بأن يظلوا عند مواليهم كما كانوا ، وما كانوا يعاملون بما يأمر به الاسلام في مثل حديث الصحيحين وغيرهما عن أبي ذر رضي الله عنه قال اني ساببت رجلا (يعني بلالا) فعيرته بأمه وفي رواية فقلت له يا ابن السوداء فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم أي بعد ان شكا اليه بلال ذلك « يا أباذر أعيرته بأمه ؟ انك امرؤ فيك جاهلية ، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم » وقد أورد البخاري هذا الحديث في كتاب الايمان للاشارة الى ان معاملة الرقيق بهذه المعاملة من شعب الايمان وأورده أيضا في العتق والأدب

أما والله لو وجد الرق الذي يجيزه الاسلام وعومل الرقيق بما يأمر به الاسلام لتمنى ألوف من الناس الذين يموتون جوعا في مثل شوارع لوندره فما دونها من المدن والقرى في كل مملكة أن يكونوا أرقاء يشاركون أهل النعمة والثراء في أكلهم ولبسهم وعملهم كما أمر الاسلام في مثل هذا الحديث

أين هذا من أمر التوراة بالرق ومن سكوت السيد المسيح عليه السلام عن الوصية بمثل ما أوصى بعده أخوه محمد عليه السلام بل بعشر معشاره على ما كان عليه الارقاء في عصر المسيح من الظلم والاضطهاد . يقول بطرس في رسالته الاولى « ٢ : ١٨ أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة ليس للصالحين المترفقين فقط بل للعنفاء أيضا ١٩ لأن هذا فضل ان كان أحد من أجل ضمير نحو الله يحتمل احزانا متألما بالظلم ٢٠ لأنه أي مجد ان كنتم تلطمون مخطئين فتصبرون بل ان كنتم تتألمون عاملين الخير فتصبرون فهذا فضل عند الله لأنكم لهذا دعيتم » وقال بولس في رسالته الى أهل أفسس « ٦ : ٥ أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة

قلوبكم كما للمسيح» الخ وفي رسالته الى أهل كولوسي «٢٢:٣ أيها العبيد أطيعوا في كل شيء سادتكم حسب الجسد لا بخدمة العين كمن يرضي الناس بل ببساطة القلب خائفين الرب» وغاية ما أمر به السادة ان يقدموا للعبيد العدل والمساواة فلا يفضلوا بعضهم على بعض فأين هذا من أمر الاسلام بالمساواة بينهم و بين السادة أنفسهم وبجعل الطاعة في المعروف لا في كل شيء. وقد نص الاسلام على كون الطاعة لا تكون الا بالمعروف حتى للنبي صلى الله عليه وسلم في آية المبايعة (٦٠:١٢ ولا يعصينك في معروف) وهو صلى الله عليه وسلم لا يأمر الا بالمعروف كما وصفه تعالى في قوله (١٥٧:٧ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر)

وجملة القول ان الاسلام أجاز الرق ولم يأمر به ولكنه أمر بالعتق والتحرير وان الديانتين اليهودية والنصرانية أجازتا الرق أيضا ولم يردفيهما من الأمر بالعتق وتحرير الرقيق ولا بحسن معاملته مادام موجودا مثل ما أمر به الاسلام. فاذا سهل على الدول النصرانية إبطال الرق ولم يمنعها الدين فهو على المسلمين أسهل لأن الدين لا يكتفي بعدم منعهم منه بل يحثهم عليه فدينهم أقرب الى هذه الفضيلة المدنية من جميع الأديان فلا خوف عليها منه وانما الخوف على كل فضيلة من الحكام الظالمين الذين يستبدون التصرف بالشرائع والقوانين

٣

﴿ علاقة النساء بالرجال ﴾

جاء الاسلام وجميع الامم تهضم حقوق النساء على تفاوت بينها في ذلك فكان أكثر الرجال يعدون المرأة كالأمة أو المتاع ومذهب علماء الاجتماع ان الناس كانوا في أمر الزواج كالبهائم في أطوارها المختلفة فكانوا أولا يبيحون كل انثى لكل رجل وكان أول الاختصاص بزوجة أو زوجات بالسبي واحتكار القوي من تمحيه من النساء واستئثاره بها وعدم السماح لغيره بملامستها الا ان يكون ذلك باذنه ولا يزال في البشر من لا يرى بمثل هذا الاذن بأسا. ولما صار للزواج روابط وأحكام دينية أو عرفية قيدت المرأة فيها بقيود لا ترفعها عن مرتبة الأمة عند الاكثرين وبقي في تقاليد كثير من الشعوب والقبائل ما يدل على أصل السبي

وخطف المرأة . وكان كثير من الرجال يتزوجون بنساء كثيرات لا يتقيدون بعدد ويطلقون من شاؤا متى شاؤا بلا تأثم ولا حرج وما جاء في اليهودية والنصرانية من الاحكام والوصايا لم يرفع قدر المرأة ولم يقربها من مساواة الرجل في الحقوق والاستقلال بشؤونها وقصارى ما تفاخرنا فيه النصرانية منع تعدد الزوجات وتحريم الطلاق الا لعلة الزنا

أما الاسلام فقد جاء باصلاح لم يسبق اليه ولم تبلغ كنهه أوربا في مدنيتها حتى اليوم . اذ لا تزال تحجر على المرأة ان تتصرف حتى بمالها بدون اذن الزوج ويرجع هذا الاصلاح الى آيات من الكتاب العزيز

(إحداها) قوله تعالى «٣٠ : ٢٠ ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» وعلى هذه الآيات بنينا مقالات «الحياة الزوجية» التي نشرناها في المجلد الثامن وتكلمنا فيها عن الطلاق وتعدد الزوجات

(الآية الثانية) قوله تعالى «٤ : ١٩ وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا»

(الآية الثالثة) قوله عز وجل «٢ : ٢٢٨ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة» وليراجع تفسيرها في (ص٣٦٨م٨)

(الآية الرابعة) قوله جل شأنه «٤ : ٣٥ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما»

(الآية الخامسة) قوله وسعت رحمته «٢ : ٢٢٩ فامساك بمعروف أو تسريح باحسان»

(الآية السادسة) قوله تبارك اسمه «٤ : ٣ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة» الآية ويلاحظ مع هذه الآية «٤ : ١٢٩ ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم»

(الآية السابعة) قوله جل ثناؤه «٤ : ٧ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا

مفروضا » فجعل المرأة تملك وتتصرف كالرجل وفي الحديث ان المرأة تملك ولا يحل للرجل أ كل شيء مما تملك الا باذنها وطيب نفسها

فهذه الآيات يشبه أن تكون هي أصول الاصلاح وفي معناها آيات مفصلة وان أوربا المدنية على مبالغتها في تكريم النساء لم تقم هذه القواعد ولم تأت بكل ما أمر به الاسلام في ذلك بل لم تصل الى درجة جماهير فقهائنا الذين يفرضون على الرجل للمرأة كل شيء تحتاجه بحسب الاستطاعة ولا يفرضون عليها له الا مواتاته بالاستمتاع بها وعدم خروجها من داره بدون رضاه وهما واجبان سلبيان فكأنهم لا يوجبون على المرأة عملا ما لزوجها بل يعدون كل عمل تعمله في ادارة بيته فضلا منها واحسانا فهل وصل الاوربيون الى هذه المبالغة في تكريم المرأة؟

كلا انه ليس في شريعة المسلمين من أحكام الزوجية وآدابها الا ما لابد منه لسعادة البيت وان بيان هذه الاحكام التي وضعت اساسها تلك الآيات منذ ثلاثة عشر قرنا وربع قرن آية على كون الاسلام شرعا إلهيا لا وضعا بشريا

بيان ذلك انها الخوطب بها الناس في عصر كان العرب فيه الى البداوة فأقدمهم رقيا وتهذيبا بحسب استعدادهم ثم أننا نرى أن أعلى ما وصل اليه البشر من الرقي في الحضارة هو دون ما تهدي اليه تلك القواعد والاحكام من الكمال الاجتماعي ولعلهم يصلون اليه في يوم من الايام. وما منع الافرنج الذين استعدوا لهذا الكمال من رؤيته في القرآن الا ذانك الحجابان الكثيفان دونه وهما المسلمون الذين صاروا باعمالهم وأفكارهم حجة عليه، وغلبة الافكار المادية على اكثر الباحثين

يظهر ان الشعور الذي كان مستوليا على الورد عندما أفلتت تلك العبارة من قلمه كان مزيجا متولدا من الفكر في اعتقاد جمهور العالم الأوربي في الاسلام والمسلمين والفكر في كثرة الشكاوى التي ترد عليه في خلل المحاكم الشرعية وما يقاسيه فيها النساء المطلقات ، والضرائر المهجورات ، وطوالب النفقات ، وما يلاقين في باب القاضي من الاهانات ، وما يقاسين من جمود القضاة على التقاليد والعادات ، وإنها لحالة تحرك عصب الرحمة في الفؤاد ، وتعقل اللسان بالانتقاد ، ولكن تسمة اعتبار الذنب في ذلك على المسلمين وعثره على بعض آرائهم الفقهية - والاسلام

قسه بري٠ من كل لائمة يشكو منهم بلسان كتابه المنزل أضعاف مايشكو جميع المتقدين٠ وأنى يسمعون شكواه وقد ضربوا دونه سورا من التقليد له باب يسمى باب الاجتهاد، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ؟ قد اقفلوه بأيديهم فتمنعوا بذلك رحمة الله ان تصل اليهم ،

طالما انتقد الأوربيون على الاسلام نفسه مشروعية الطلاق وتعدد الزوجات وهالم يطلبا ولم يحمدا فيه وإنما اجيزا لأنهما من ضرورات الاجتماع كما بينا ذلك غير مرة وقد ظهر لهم تأويل ذلك في الطلاق فشرعوه وان لم يشرعه لهم كتابهم الالهة الزنا . واما تعدد الزوجات فقد تعرض الضرورة له فيكون من مصلحة النساء أنفسهن كأن تغتال الحرب كثيرا من الرجال فيكثر من لاكافل له من النساء فيكون الخير لهن ان يكن ضرائر ولا يكن فواجر يأكلن بأعراضهن ويعرضن أنفسهن بذلك لمصائب ترزحهن أثقالها وقد اخذ القوم يعرفون وجه الحاجة بل الضرورة الى هذا كما عرفوا وجه ذلك في مسألة الطلاق وقام من نساء الانكليز الكاتبات الفاضلات يطالبن في الجرائد بإباحة تعدد الزوجات رحمة بالعاملات الفقيرات ، وبالبنايا المضطرات ، وقد سبق لنا في المنار ترجمة بعض ما كتبت احداهن في جريدة (لندن تروث) مستحسنة رأي العالم (تومس) في انه لاعلاج لتقليل البنات الشاردات الا تعدد الزوجات ، وما كتبت الفاضلة « مس أني رود » في جريدة (الاسترن ميل) والكاتبة « اللادى كوك » في جريدة (الايكو) في ذلك (راجع ص ٤٨١ م ٤)

ان قاعدة اليسر في الامور ورفع الحرج من القواعد الاساسية لبناء الاسلام (٢ : ١٨٥ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر — و — ٥ : ٦ مايريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج) ولا يصح أن يبنى على هذه القاعدة تحريم أمر تلجيء اليه الضرورة أو تدعو اليه المصلحة العامة أو الخاصة (كما بينا ذلك في مقالات الحياة الزوجية وغيرها) وهو مما يشق امتثاله دفعة واحدة لاسيما على من اعتادوا المبالغة فيه كتعدد الزوجات كذلك لا يصح السكوت عنه وترك الناس وشأنهم فيه على مافيه من المفاسد فلم يبق الا ان يقلل العدد ويقيد بقيد ثقيل وهو اشتراط

انتفاء الخوف من عدم العدل بين الزوجات وهو شرط يعز تحققه ومن فقهه واختبر حال الذين يتزوجون باكثر من واحدة يتجلى له ان أكثرهم لم يلتزم الشرط ومن لم يلتزمه فزواجه غير إسلامي

وجملة القول في هذه المسألة أن القرآن أتى فيها بالكمال الذي لابد ان يعترف به جماهير الاوربيين ولو بعد حين كما يعترف به بعض فضلائهم وفضلياتهم الآن . وأما المسلمون فلم يلتزموا هدايته فصاروا حجة على دينهم ونحن احوج الى الرد عليهم والعناية بارجاعهم الى الحق منا الى اقناع غير المسلمين بفضل الاسلام ، مع بقاء اهله على هذه المخازي والآثام ، اذ لو رجعوا اليه ، لما كان لأحد ان يعترض عليه ،

٤

الاحكام المدنية والجنائية ، في الشريعة الاسلامية

يفرق كتاب العصر بين الدين والشريعة فيعنون بالدين الاعتقاد والعبادات والفضائل أي ما يراد به إصلاح الأرواح وإعدادها لسعادة الآخرة أولا وبالذات وان كان يفيد في سعادة الدنيا أيضا ، ويعنون بالشريعة ما يسوس به الحكام الناس ويفصلون به بينهم في الخصومات أي ما يراد به إصلاح أحوال الاجتماع السياسية والمدنية والجنائية . ومن المعروف ان موسى جاء بدين وشريعة ومعظم ما جاء به أحكام دنيوية وان عيسى جاء بدين فقط وأقر اليهود على شريعة موسى وان ما جاء به محمد (عليه وعليهما الصلاة والسلام) جمع بين الأمرين . ويعتقد الافرنج ان المسلمين لا يفرقون بين الدين والشريعة لان كلا منهما آلهي عندهم

ولما كانت الأمور الدنيوية تختلف باختلاف الزمان والمكان حتما كان من المحال ان توضع لها شريعة تامة توافق مصلحة الناس في كل زمان ومكان وهذه مسألة لا يختلف فيها عاقلان ومن ثم يعتقد الافرنج انه يستحيل على المسلمين أن يجاروهم في مدنيتهم ماداموا يعدون شريعتهم التي عليها مدار أمور دنياهم إلٓهية لا يجوز فيها التغيير والتبديل ولا يفرق فيها بين حال البدو في الصحراء ، وحال من بلغوا من الحضارة ذروة الارتقاء ، ويعدون حكامهم رؤساء يتقرب الى الله

بطاعتهم فلا يعارضونهم في استبدادهم بهم ولا يأنفون من استعبادهم إياهم

لو اعتقد القوم فينا اننا لا نرتقي مادمنا على شريعتنا وتركونا وشأننا لما باليتا ولكنهم يعرضون لنا في شؤوننا و يعتاتون علينا في خاصة أنفسنا زاعمين ان المدنية التي سفكوا في وسائلها دماءهم ، ووقفوا على مقاصدها حياتهم ، و بذروا بذورها في الشرق ، بعد ان جنوا ثمراتها في الغرب ، لا يرجى ان تنمو لها نبتة ، ولا ان تحفظ لها بذرة ، في مكان للشريعة الاسلامية فيه سلطة ، ينشرون هذه الآراء بالكتابة ، و يبثونها في النفوس بالتعليم والخطابة ، وقد يضيفون اليها الطعن في قسم العقائد حتى التوحيد والقدر كافعل موسيو هانوتو وغيره. منهم من ينطقه الاعتقاد ومنهم من تملي عليه السياسة والسياسة تبيح المحرم وتحل الكذب وتقلب الأوضاع وتأتي المنكرات

ويقول العارفون بحقيقة ما عليه الشعوب الأوربية من التربية العالية ان السواد الأعظم منهم لا يكابر الحق ، ولا يرضى الظلم والهضم ، وان رجال السياسة في كل شعب منهم قد يحاولون في الواقع ما تقتضيه [illegible] مخالفة الحق والعدل احيانا ليجيز ظلمهم ، وان من أمكنه ان يقنع بعض هذه الشعوب بحق من الحقوق العامة فانه يجد له منهم خير نصير ، وأقوى ظهير .

على هذه الطريقة جرى شيخنا الاستاذ الامام (رحمه الله تعالى) في مناظراته القولية والكتابية لعلماء الافرنج وساستهم كزنان وهانوتو وغيرهما فتدحج واقنع منهم جيلاً كثيراً بان الاسلام جاء باصلاح يوافق مصلحة البشر في كل زمان وكذلك فعل في ردوده على الشاذين من أهل الشرق الذين يقولون في الاسلام بغير علم . ويعلم قراء المنار أننا لا نألوا جهداً في بيان التوفيق بين عقائد الاسلام وآدابه وأحكامه و بين العقل والفطرة والمصلحة واننا نبني هذا التوفيق على ماجاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم التي مضت بالدوران مع المصلحة في كل حال بحسبها لا على ما جاء في كتب الفقهاء من الآراء التى أداهم اليها اجتهادهم ومنهمُ المخطئ فيها والمصيب . ونحن عاجزون عن الانتصار لكل ما في كتب الفقه كما نتصر لكل ماجاء في الكتاب وما مضت به السنة السنية . على

ان ماينتقد على الآراء الاجتهادية في فقهنا ينتقد مثله على القوانين الوضعية . ولكن المتقدين يقولون لنا ان ما يظهر خطأه في القوانين يسهل الرجوع عنه وما يظهر خطأه في الفقه يتعذر الرجوع عنه لانه في عرفكم من الدين وهو قول لايمكن دفعه مع الجمود على التقليد فهدم التقليد شرط يتوقف عليه كل إصلاح يطلبه عقلاء المسلمين مع المحافظة على الاسلام ونشره في عالم المدنية العصرية ، والجمع بينه وبين العلوم والمعارف التي عليها مدار العمران والمزة . وان طريقتنا هذه يؤيدها خيار المسلمين من أهل الدين والدنيا كالسلفيين والقائلين بوجوب الاجتهاد في الدين . وأ كثر المتعلمين على الطريقة العصرية سواء منهم المتدين حقيقة والمتدين جنسية . وقد صار الذين يصرحون بذلك كثيرين . وأذكر من الشواهد عن العصريين قول أحمد شوقي بك شاعر الأمير عباس حلمي باشا في منظومته التي رفعها اليه يهنئه فيها بميلاد ولي عهد الامارة (الأمير محمد عبد المنعم)

و ياجيل الامير اذا نشأتا   وشاء الجد ان تعلى وشئتا
فخذ سبلا الى العلياء شتى   وخل [illegible] الدين القويما
وضن به فان الخير فيه   وخذه من الكتاب وما يليه
ولا تأخذه من شفتي فقيه   ولا تهجر مع الدين العلوما

فهذه وصية من شاعر الامير الى ولي عهده يأمره فيها باتباع الكتاب والسنة وعدم اتباع الفقهاء وقد رضيها الامير أعزه الله ولم ينكرها

ليست طريقتنا هذه بخفية على الافرنج فقد كتبت الجرائد الفرنسية عن رحلة الاستاذ الامام الى تونس والجزائر مايدل على انها عارفة بخطته راضية بها وذكرت ان آراءه في الاصلاح الديني تنشر في بعض المجلات المصرية تعنى بها المنار وقد كتب في الجرائد الفرنسية في تونس وأوربا وفي غيرها من الجرائد الأوربية شيء عن مذهب المنار ومنه ما كتب في المجلة الفرنسية في أوائل سنة ١٩٠٥ وهذا مانصه :

(المنار) أسس في القاهرة سنة ١٨٩٧ أسسه الشيخ محمد رشيد رضا أحد كتاب المسلمين المشهورين للمبدأ الفيلسوف المصري الكبير الشيخ محمد عبده مفتي الديار

المصرية وهو لا يبحث في المجلة الا في المسائل الدينية والفلسفية وغايته التي يرمي اليها هي تعليم المسلمين دينهم على أنقى صورة له خاليا عنه الأوهام والخزعبلات والبدع القديمة وقد قال الشيخ محمد عبده ان دين الاسلام في شكله الحقيقي هو غاية ما يطلبه الانسان من الكمال — هذه هي خطة المنار وهو مجلة تصدر في الشهر مرتين

وجاء في عدد آخر منها

(المنار) الصادر بالقاهرة في شهر فبراير (أي من سنة ١٩٠٥)

أهم مقالة في هذا العدد تبحث عن مثال الحكومة الاسلامية وكاتب هذه المقالة صالح بن علي اليافعي وهو كاتب هندي (١) قد بين فظائع الحكومة المطلقة التي مقتها القرآن والنبي وقد بين هذا الكاتب ان الحكومة الاسلامية كانت في زمن الخلفاء الاولين ديمقراطية محضة وان الخليفة نفسه كان ينتقده نواب الامة الذين كانت مهمتهم مراقبة سيره مراقبة شديدة

الاسلام لا يقبل من شكل الحكومة الا الشكل المقيد والجمهورية والجملة أن كل ضرب من ضروب الحكومة المطلقة بعيد عن حكم الاسلام كائنا من كان ليس من الاسلام في شيء . . جاءت هذه المقالة عقب جزء من تفسير القرآن للشيخ محمد عبده » اه

والمراد مما تقدم ان الباحثين في أمور الشرق من الاوربيين عارفون بمرامي طلاب الاصلاح من المسلمين وأنهم يريدون الرجوع بالدين الى ما كان عليه في أول نشأته غير متقيدين بما وضعه العلماء من التقاليد التي قد تحول دون مجاراة أهل هذا العصر بل مسابقتهم في علومهم ومدنيتهم لأنهم يرون ان الكتاب والسنة يحثان على ذلك لا يحولان دونه والمقلدون للفقهاء يرون غير ذلك . ولا يعقل ان يكون اللورد كرومر غير عارف ما عرفه كثير من الأوربيين الذين لم يقيموا في الشرق كما أقام ولم يكتنهوا أمر المسلمين كما اكتنهه فان كان بعد هذا الاختبار كله يقول للأوربيين ان رجوع المسلمين الى أصول شرعهم يمنعهم المدنية ويحول عليهم ما يرجع

(١) هو هندي الوطن عربي الاصل يقيم في حيدر اباد

بهم الى طور السذاجة المضادّ للحضارة فان قوله هذا أعظم صدمة للإصلاح الذي ندعو اليه لأن كلامه في ذلك يؤخذ بالقبول عند الام الأوربية كلها ونخشى ان ينهضوا الدعوة الى الاصلاح في بلادهم ولا شيء يدفع ذلك الا كلام من اللورد نفسه

لهذا وقفت علينا عبارة التقرير في القوانين الاسلامية كالصاخة وأخذنا نجيل قداح الفكر فيها فرأينا بعد طول التأمل أن العبارة وان كان المتبادر منها أنها في الاسلام نفسه — كتابه وسنته وفقهه وكل شيء فيه يتعلق بالمعاملات — يجوز أن يحمل على الفقه وحده لأن حكام المسلمين لا يحكمون الا به اذا هم ارادوا الرجوع الى الاسلام وإنما قلنا يجوز ان يكون هذا هو مراد اللورد وان كانت عبارته مطلقة تفيد ماهو أعم من هذا وتشمل الاحوال الشخصية لأن التمسك بالفقه هو الذي رآه المانع من اصلاح المحاكم الشرعية كما بيناذلك بالتفصيل في مقالة نشرت في المجلد السابع من المنار (ص ٢١٢) استشهدنا فيها عا قاله في تقريره عن سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩٠٣ وبشيء من محاضر مجلس شورى القوانين

من ذلك ان [illegible] (محمد باشا [illegible]) [illegible] تأليف لجنة لوضع تقرير في إصلاح المحاكم الشرعية فقال الشيخ حسونة النواوي « اني لا أعلم ان المحاكم الشرعية تحتاج الى الاصلاح في أمر من أمورها » قال في محضر الجلسة « تقرر بالاغلبية التصديق على رأي الشيخ حسونه النواوي » وقد ذكر اللورد هذا في كلامه عن المحاكم الشرعية في تقرير سنة ١٩٠٣ وهو مع ذلك أعلم الناس بكثرة شكوى المسلمين من هذه المحاكم

ومن ذلك ان قاضي مصر قال لما طرحت مسألة إصلاح المحاكم الشرعية في الجمعية العمومية سنة ١٩٠٤ مانصه « قد سمعنا المقترحات المتعلقة بالمحاكم الشرعية ونقول ان أعمال تلك المحاكم ترجع أولا الى الشرع الشريف وهذا لا يمكن لمسلم ان يقول انه يحتاج الى اصلاح » الخ

فأمثال هذه الاقوال من كبار الفقهاء هي التي جعلت اللورد كرومر يعتقد ان هذا الفقه الذي يحكمون به قد صبغ كله بصبغة الدين فلا يمكن تنقيحه وهو يعتقد قطعا انه لا يوافق مدنية هذا العصر ولا ينطبق على مصالح أهله . اذا أمثل

الدين وهو الكتاب العزيز والسنة النبوية فقد يعتقد فيه ذلك وقد يكون مصدقا لطلاب الإصلاح في قولهم لاينافي المدنية ويحمل على الاخير حث الاوربيين على مساعدة حزب الشيخ محمد عبده الذين يطلبون الاصلاح من غير مس لأصول الدين . وقد حدثني الاستاذ الامام رحمه الله تعالى انه كان يكلمه مرة في هذا الموضوع بمناسبة مقاومة الجامدين لاصلاح المحاكم الشرعية فأقام المرحوم له الدلائل على أن الاسلام يدعو الى كل صلاح ويناسب كل زمان فقال له اللورد أتصدق يا أستاذ أني أعتقد ان دينا أوجد مدنية جديدة وقامت به دول عظيمة لايكون أساسه العدل،هذا محال ولكنني أعلم ان هذه المقاومات أمور «اكليركية» أي تقاليد كتقاليد الكنيسة

تذكرنا هذا فقلنا في نفسنا لعل اللورد لايقصد بعبارة التقرير ما يتبادر منها لئلا يتناقض ذلك مع ما ذكرنا آنفا ولكن هذا لايمكن ان يعرف الامن قبله فكتبنا اليه كتابا نسأله أي الامرين يعني بعبارته ، هذا نصه

القاهرة في ٢٠ ربيع الاول سنة ١٣٢٥

جناب اللورد المعظم

أحييك بما يليق بمكانتك وان لم يسبق لي شرف المعرفة لحضرتك وأرجو ان تمن علي ببضع دقائق من وقتك الثمين تجيبني فيها عن السؤال الآتي الذي يهمني من حيث أنا صاحب مجلة إسلامية تدافع عن الدين وتبحث في فلسفته وهو

هل عنيت بما قلت في تقريرك الاخير عن الحكم بالشريعة الاسلامية التي وضعت منذ اكثر من الف سنة الدين الاسلامي نفسه الذي هو عبارة عن القرآن الحكيم والسنة النبوية أم عنيت بذلك الفقه الاسلامي الذي وضعه الفقهاء ؟ فان كنت تعني الثاني فهو من وضع البشر وقد مزجت فيه آراؤهم بما يأخذونه عن الاول وخطأ فيه بعضهم بعضا وقد ترك حكام المسلمين أنفسهم العمل بكثير منه ولطلاب الاصلاح من المسلمين انتقاد على كثير من تلك الآراء في كل مذهب، وإن كنت تعني الاول فهذا العاجز مستعد لان يبين لجنابكم ان معظم ما جاء في الدين نفسه من الاحكام القضائية والسياسية هو من القواعد العامة — وهي

توافق مصلحة البشر في كل زمان ومكان لان أساسها درء المفاسد وجلب المصالح بحكم الشورى — وما فيه من الاحكام الجزئية (وهو مقابل المعظم) راجع الى ذلك . وأختم رقيمي مودعا لجنابكم بالتحية والاحترام منشيء المنار بمصر

محمد رشيد رضا

كتبنا اليه هذا ونحن نتمنى لو يجيبنا بأنه يرىء أصل الدين من معارضة المدنية ونخشى أن لا يفعل — ذلك بانا نعتقد ان كلامه في الاسلام يؤثر في جميع الشعوب الأوربية ما لا يؤثر كلام غيره فاذا هم اعتقدوا بشهادته ان الاسلام نفسه يتفق مع المدنية ويسير مع العدل وأن السبب فيما يرى من سوء حال أهله هو ما ألصقوا به من التقاليد والآراء وجعلوه بهذا الالصاق دينا فان هذا الاعتقاد يكون أكبر عون لنا على خدمة الاسلام والدفاع عن أهله الذين أصبح معظمهم تحت سلطة الأوربيين واذا هم اعتقدوا العكس كان ذلك اشد منفر لهم عن الاسلام وحامل لهم على إلزام حكوماتهم بالضغط على رعاياهم . وكنا عازمين على ان نكتب اليه رسالة في بيان ان ما جاء في الاسلام من الاصول الاساسية للاحكام الدنيوية يوافق مصالح البشر في كل زمان ونقدمها اليه مترجمة بالانكليزية ونسأله باسم العدل والانصاف ان يبدي رأيه فيها — كنا عازمين على هذا لو أجابنا بأنه يعني بما كتب الاسلام نفسه أو مجموع ما عليه المسلمون من كتاب وسنة وفقه لأنه يعتقد ذلك ولا يخاف في اظهار اعتقاده أحدا ولكنه تفضل بالجواب الآتي بنصه العربي موقعا ومؤرخا بخطه الافرنجي وهو

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الشيخ رشيد رضا صاحب جريدة المنار

جوابا على خطابكم أقول اني عنيت بما كتبت مجموع القوانين الاسلامية التي تسمونها الفقه لأنها هي التي تجري عليها الاحكام ولم أعن الدين الاسلامي نفسه ولذلك قلت في هذا التقرير الأخير وفي غيره بوجوب مساعدة الحزب الاسلامي الذي يطلب الاصلاح ويسير مع المدنية من غير أن يمس أصول الدين . ولعل العبارة التي كتبتها بتقريري كانت موجزة فلم تؤد المراد تماما واقبلوا يا حضرة الاستاذ احترامي الفائق في ٤ مايو سنة ١٩٠٧ كرومر

والقارئ المنصف يرى انما استدل به على كونه لا يريد بما كتب الدين الاسلامي نفسه معقول لا يمكن دفعه بعد تصريحه بأن عبارة التقرير لم تؤد مراده تمام الأداء والانسان أعلم بمراد نفسه . غاية ما كان يقال ان مراد القائل يعرف من قوله وقول اللورد في التقرير يشمل الفقه وينابيعه من الكتاب والسنة . و يقال الآن انه استثنى تلك الينابيع بقول آخر مبين لمراده من القول الأول فليعتبر هذا القول تصحيحا أو تخصيصا لسابقه أو استدراكا عليه . ولعل أهل الغيرة الصحيحة على الاسلام ينشرون في الجرائد الأوربية ليطلع عليه الأوربيون الذين قرأوا التقرير فانه خير لنا من شهادة بعض المستشرقين بفضل الاسلام لأن المستشرقين يتهمون في أوربا بالتعصب للشرق وأهله . ولا يعذر من يعدون اللورد كرومر عدوا اذا لم ينشروا قوله اذ يقال لهم ان شهادة العدو لك أقوى من شهادة الصديق ، على انه بلغنا من مصدر يوثق به ان شيخ الأزهر قال للورد عند ما زاره مودعا له : اننا قرأنا العبارة التي ترجمت من تقرير جنابكم في الاسلام فلم نجد فيها طعنا فيه ولا مسا لكرامته . أوما نقله معاصر ونقل مراد الشيخ من ذكر من اجازة الرق ومناقضة أحكام الزوجية لآراء أهل العصر وكون الاحكام المدنية الجنائية لا تتغير كل ذلك صحيح وحسن عند المسلمين فان لم يستحسنه المخالفون فذلك لا يعيبه فاذا كان مناقضا لآرائهم فهو موافق لآراء أهله . ونحن معاشر طلاب الاصلاح لا نقول بهذا ونعده طعنا نبرئ منه الاسلام دون الفقه ونوافق اللورد على ذلك

أما ما يجب أن يعتبر به المسلم العاقل في هذا المقام فهو اننا نعلم علم اليقين انه لو تيسر للمسلمين انشاء حكومة اسلامية لما رضي جمهور علمائهم ومن ورائهم العامة ان يحكم فيها بغير هذه الكتب الفقهية بما فيها من أحكام الرق والزوجية وغير ذلك على علاته . ومن أكبر علاته الخلاف الكثير في المسألة الواحدة واختلاف التصحيح والترجيح فيها حتى ورد في بعضها بعد ذكر تصحيح قولين متناقضين في مسألة من مسائل الطلاق «نحن مع الدراهم قلة وكثرة » أي ان المرجح لاحد القولين المصححين في المذهب هو الدراهم التي يأخذها المفتي من أحد المستفتين

بلغ من جمود فقهائنا على هذه الكتب التي يوجد فيها مثل هذه الفضيحة

أنهم يعدون العدول عنها الى كتاب يوضع خاليا من مسائل الخلاف موافقا لحال الزمان جناية على الدين نفسه . ومن عجائب هذا الجمود أن شيخ الاسلام الشاني لا يفتي بمجلة الاحكام العدلية ولا يأذن لاحد من المفتين الذين يعينهم بالفتوى بها واذا ذكر شيء منها في فتوى فانه يعيد كربعد النص الفقهي من الكتب المعتمدة عندهم . على ان الدولة لم تعمل عملا شرعيا أفضل من وضع هذه المجلة فمن لنا بجمعية من العلماء العقلاء تدرس بعد التمكن من علم الكتاب والسنة والفقه قوانين الامم ثم تستخرج من هذه الشريعة كتابا يفوقها عدلا وسهولة وموافقة لمصالح البشر في هذا العصر يكون حجة ناطقة على كل من ينسب القصور الى الشريعة أوالدين . وينبغي أن تعزل فيه الامور الدينية عن القضائية أو يذكر في أول كل باب من أبواب المعاملات أو كتبها ماهو ديني منها كأن يقال في كتاب المعاملات المالية ان الله حرم أكل أموال الناس بالباطل والغش والخيانة وأكل الربا إضعافا مضاعفة وأوجب الوفاء بالعقود وأداء الامانات الى أربابها . ويذكر في أول باب القضاء تحريم [illegible] الرشوة وكون حكم القاضي [illegible] الشي . لا يحله للمحكوم له اذا كان يعلم أنه ليس له . اما هذا الفقه فهو على ما فيه من محاسن حجة علينا لانا بما فيه من المساوي والى الله المشتكى

انا نحن المسلمين قد أصبنا ولا مثل أصدق علينا من قول ابن دريد

نحن ولا كفران لله كما قد قيل في السارب أخلى فارتعى

اذا أحس نبأة ريع وان تطامنت عنه تمادى ولها

فنحن نرتع في غفلات الزمان ما وجدنا مرعى فاذا صاح بنا نذير تقلبات الزمان نراع ونجفل وقد نصرخ من الفزع ، أو نتفجع انفجاع الحر ، فاذا سكنت نبأة النذير ، عدنا إلى سابق التقصير ، نرتع ونلعب ، ونلهو ونطرب ، بل نمارى بالنذير ، ولا نستفيد من العبر ، بل نقول ولا نعمل ، واذا وجد العامل لإحياء الدين ، واقامة حجته على المخالفين ، فاننا نخذله مع المخذولين ، أفرضى ان نكون في حكم القرآن من المنافقين الذين يقولون مالا يفعلون ، أو الناقضين الذين يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولاهم يذكرون ؟ !

باب المناظرة والمراسلة

« تشبيه كتاب الاحياء بالقرآن »

حضرة السيد منشىء المنار محمد رشيد افندي سلمه الله وعافاه

يزعمون ان الامام النووي قال في حق الاحياء : كاد الاحياء أن يكون قرآناً ونقله الشيخ عبد القادر العيدروس باعلوي في كتابه «الاحياء في فضائل الاحياء» المطبوع في هامش الاحياء . ولاشك أن الاحياء كتاب عزيز قلما يكون له مثيل ولكن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكيف يقاس كلام المخلوق على كلام الخالق . ونحن نستغرب جداً صدور القول من النووي وان كان غير معصوم من الخطأ . وقد كنت طالعت في زمان مضى شرح مسلم لهذا الامام الجليل ولكن لا (اختار) أني رأيت فيه ما يقرب من هذا القول وليس عندنا من سائر تأليفاته شيء ولذلك جئنا نستفسر رأيكم في هذا الامر وهل القول المذكور منقول من النووي بالسند الصحيح أو لا ? موجود في آثاره المتداولة في تلك الاصقاع بأنفسكم يا حبذا لو تثبتونه في صفحة من المنار فلعلنا نستفيد منه ويستفيد غيرنا ولكم في ذلك جميل الثناء وكثير الاكرام .

عضو الجمعية الشرعية ببلدة اوفا سابقاً ومحرر جريدة «وقت» ببلدة أورنبورغ حالاً

رضاء الدين بن فخر الدين

(المنار) ليست عبارة النووي رحمه الله تعالى بالمكان الذي وضعتموها فيه وإن صحت نسبتها اليه فانها لا تدل على مساواة كتاب الاحياء لكتاب الله ولا على كونه يقاس به وإنما هي عبارة يقصد بمثلها المبالغة واعتبر بحديث أنس عند أبي نعيم في الحلية « كاد الفقر ان يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر » فأنت ترى ان الحديث لا يمكن حمله الا على المبالغة المعهودة في الاسلوب العربي بمثل هذا التعبير وضعف سنده لا ينافي مجيئه على أساليب العرب وقوانين البلاغة فمعنى العبارة المعزوة الى النووي ان كلام الاحياء يؤثر في القلوب ويرغبها في الهداية بحيث يصح ان يقال فيه بلسان المبالغة انه قريب من القرآن في ذلك

الانتقاد على المنار

كلكته ١٧ ربيع الاول سنة ١٣٢٥

فضيلتلو أفندم صاحب مجلة المنار المحترم

من بعد اهداء التحية أقول حيث أفدتمونا في خط خصوصي قبل هذا بأن غرض الفقير من مكاتبتكم والاشتراك في مجلتكم هو الوقوف على حقيقة قصدكم من انكار تقليد أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد في فهم معنى الكتاب والسنة وأقوال الصحابة ليس الا فرجوكم الافادة عن ما اذا كان قصدكم اظهار المخالفة لتعرفوا فتعذركم اذ لستم أول من خالف لهذا الغرض وان كانت الآخرة خيراً وأبقى ، وقد يضطر الانسان في الناس قوته الى مالا يجوز «الا ما اضطررتم اليه» فان كان هذا قصدكم فنحن نكتفي منكم بالاشارة ولو من طرف خفي لعلمنا ان ساحة عفو الله واسعة ورحمته وسعت كل شيء • وعليه فنكف البراع عن الاسترسال في موضوع ولجتموه مضطرين وان كان قصدحضرتكم هو رد الأئمة الى الصواب لما تحقق عندكم وثبت لديكم من خطأ الأئمة الأربعة واحدهم في فهم كلام الله وسنة رسوله واقوال الصحابة فالمأمول من غيرتكم على الشرع الشريف ان تبينوا لنا في أي موضوع أخطأ الائمة أو بعضهم في فهم ماذكر فان يتم لنا ذلك فالأمل ان تفيدونا عما اذا كان أصحاب المخطيء منهم أجمعوا على موافقته على الخطأ أو على مخالفته بحيث تركوا العمل بقوله بالمرة وصار العمل على خلاف ماذهب اليه أم اختلفوا فمنهم من خالف ومنهم من وافق فان كان الاول فانا نلتمس من فضيلتكم مع الاحترام لشخصكم ان تعرفونا أولا وجه خطأ الامام في فهم معنى الكتاب أو السنة أو اقوال الصحابة المجمع عليها وثانيا محل اتفاق أصحابه معه على الخطاء من ذلك العهد الى عهدنا هذا فان عرفتمونا عن ذلك ولا أخالكم فاعلين تبين لي صحة قصدكم وسلامة نيتكم وشدة غيرتكم على الأمة المحمدية وحرصكم على انتشالها من مهاوي الضلالة وحينئذ أضم صوتي مع صوتكم قياما بالواجب وعلى الله أعلم المقاصد «كنتم خير أمة» الآية «من رأى منكم منكرا» الحديث وان لم تفعلوا كما هو الراجح علمنا ان القصد غير صحيح والنية غير سليمة وانما القصد اظهار المخالفة

تحيلا لالتماس القوت وهنا يحسن بي ان أقول لحضرتكم ان انتظامكم في سلك محرري الجريدة يغنيكم من ارتكاب هـذا الشطط الذي يأباه مقام من يدعى بفيلسوف الاسلام مرة و بالمصلح أخرى وان كان الثاني وهو اتفاقهم على مخالفة امامهم فيما الخطأ فيه أوالثالث وهو اختلافهم في ذلك فقـد تحقق لدينا ان القوم لم يحابوا امامهم ولم يأخـذوا اقواله قضايا مسلمة ولم يتبعوه الا فيما تحقق لديهم بالأدلة الصحيحة لأنهم لا يعتقدون عصمته بل الامام نفسه لا يعتقد لنفسه العصمة من الخطأ وقلنا لا تجـد اماما الا وقد خالفه أصحابه في كثير من المسائل وضعف له اتباعه كثيراً من الاقوال فسلام يلام المتبوع وهو مقر بجواز وقوع الخطاء منه وبأي دليل يؤاخذ التابع وهو لم يراع لامامه في مقابل الحق حرمة وان قلت أيها المصلح نحن لا نعتقد ان الائمة أو أحدهم لم يفهموا معنى الكتاب والسنة بل فهموا ذلك غير أنهم أو أحـدهم قد بسلك سبيل القياس في مقابل نص القرآن أو صحيح السنة أو اجماع الصحابة بلا ضرورة ملجئة فنقول ان كان لديكم شيء من ذلك فتفضلوا [illegible] من [illegible] ان كان حقا من السالكين واياكم واتباع الهوى وسلوك خطة المكابرة أو المغالطة فانا عنـد ذلك معرضون والحق راضخون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون هذا وان تفضلتم على الفقير المذنب بالجواب من اعتقاده في أن وقوع الخطأ من أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد الذين قد تقدم في فهم معنى الكتاب والسنة جمهور الأمة الا قليلا ممن اغواهم الشيطان من زمن غير بعيد أقل منه ممن أصيبوا في عقولهم وزين لهم الشيطان أنهم ادركوا من أسرار الشريعة مالم يدركه هؤلاء الائمة حملة الشرع الشريف وان تقليد أحد الائمة المذكورين أولى من تقليد من ذكرنا من الغواة على فرض أنهم على شيء من العلم والتقوى هل أنا الفقير مصيب في هذا الاعتقاد أم لا بينوا توجروا ودمتم أفندم　　　محسوبكم المطيع

أحمد موسى المنوفي بكلكته

(المنار) تعمدنا بنشر هذه الرسالة برمتها على مجيئها قبيل اتمام المنار وعلى قيام القرائن السابقة واللاحقة عندنا بل الدلائل الناطقة على سوء اعتقاد صاحبها بنا

وقله أنه قادر على دحض حجتنا والتغير عن خطتنا بل على كونها ليست على شرطنا في انتقاد المنار وهو أن يذكر لنا المنتقد لنا شيئا مما نشرناه ويبين بطلانه بالدليل أو يطالبنا بالدليل عليه اذا نحن أوردناه غفلا . وليس منه ان يحاسبنا على نياتنا وكسبنا أو يعرض بسبنا وثلبنا أو يخترع لنا رأيا ويسألنا عنه. نشرة الرسالة على هذا كله لتبين لمرسلها ان ما فيها ليس بالشيء الذي يسمى انتقادا واننا فيما نحن عليه من البصيرة والبينة في الدين لا نحفل بقول من يقول أو يكتب اننا نخطئ الائمة الاربعة وان كان ذلك مما ينفر عن المنار جماهير العوام وكثيرين ممن يعدون من الخواص الذين يجلون هؤلاء الائمة إجلالا خياليا تقليديا لا يوازي معشار اجلالنا الحقيقي لهم رحمهم الله وجزاهم خيرا

وأول ما نقوله في الجواب انظر بعنا التي جرينا عليها في المنار ليست من الوسائل التي يلتمس بها القوت — لو كنا نموز ... لا تها مخالفة لأهواء الاكثرين وآرائهم مظنة لان تكسد سوقنا فيهم وانما يلتمس القوت من يلتمسه من أصحاب النفوس الصغيرة من حملة الاقلام بما يرضي الجمهور ... أننا انشأناه ونحن نتوقع عدم رواجه ... ظهر لنا صدق ذلك وظل المنار أربع سنين لا يأتي من اشتراكه الاجزء قليل مما ينفق عليه وهو الآن على سعة انتشاره لا يعد ربحه مقصودا لمن يقدر ان يربح بغيره اذا تركه اضعاف ما يربح منه وقد تمر السنين ولا نطالب أكثر المشتركين بقيمة الاشتراك بل نترك ذلك لامانتهم وما هذا شأن من يعمل لأجل القوت . ولسنا من محرري الجريدة كما قال في فضوله الذي يشبه سائر أقواله في كونه رجما بالغيب . ثم اننا لقينا من الايذاء في سبيل المنار ما يعرفه الكثيرون اجمالا أو تفصيلا ولا نطيل في هذا فان الاخلاص صلة بين العبد وربه. ومن لم ير في دعوتنا الى انتقاد ما نكتب ونشر ما ينتقد علينا آية على أننا لا نريد الا بيان الحق فله أن يسيء الاعتقاد بنا كيف شاء وعلينا ان نسأل له العفو والمغفرة والهداية من الله تعالى . ثم إننا نتكلم في المقصد فنقول

ملخص الجوهر في كلامه اننا ننكر على من نظروا فيما فهم الائمة الاربعة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة فاتبعوا منه ما رأوه صوابا وردوا ما رأوه خطأ وسمي

هذا الاتباع تقليدا وهو لو وجد لا يعد تقليدا ونحن لم ننكر ذلك قط فإن أصر على زعمه فليبين لنا مكانه من المنار وإنما ننكر التقليد في الدين وهو الاخذ بقول القائل من غير دليل لما قام عندنا من الحجج والدلائل على بطلانه وبذلك قال الائمة الأربعة وغيرهم من أهل العلم، وما أجاز التقليد الا ضعفاء المقلدين الذين خالفوا أئمتهم في استباحة التقليد . أما كون الائمة أصابوا في فهم الكتاب والسنة وأقوال الصحابة فهو لا يمنع بطلان التقليد في نفسه اذ لا ينقض دلائله بل ربما يؤكدها لأن ما جاز لهم جاز لغيرهم لأنه ليس وحيا اختصهم الله به وجعله فوق كسب سائر البشر بل هو أمر ممكن يتناوله كسب كل كاسب وان تفاوت الناس فيه و « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » والحق أن المجتهد منهم ومن غيرهم يخطئ ويصيب بل قال أهل الاصول ان اجتهاد الانبياء عليهم الصلاة والسلام قد يقع فيه الخطأ ولكن الله لا يقرهم عليه بل يبين لهم الحق فيه وأن الائمة الاربعة قد ثبت عنهم ذلك . والمقلدون يأخذون بما صح في مذاهبهم وان بحث العلماء فيه وبينوا مخالفته للدليل ولتراجع أصول الكرخي

أما الدلائل على بطلان التقليد فقد بيناها بالتفصيل في مقالات خاصة وفي تفسير القرآن وفي كثير من الفتاوى وغيرها فلا سبيل الى إعادتها هنا بل عليه ان يراجعها في مجلدات المنار السابقة وله بعد ذلك ان يذعن لها وأن يرد عليها ان استطاع ونحن نعده بنشر رده في المنار بشرط ان لا يتعدى البحث في الموضوع الى ما ليس منه كما فعل في هذه الرسالة . ومن اقدم ما كتبناه تفصيلا في ذلك « محاورات المصلح والمقلد » وفيها نصوص الأئمة في بطلان التقليد لهم ولغيرهم وهي مطبوعة على حدتها في كتاب فله ان يطلبه من مصر وثمنه مع اجرة البريد روبية واحدة

وقد طبع في هذه الايام اجزاء من كتاب « الأم » للامام الشافعي وعلى هامشه مختصر صاحبه الامام المزني وهو مفتتح بهذه العبارة بعد البسملة « قال أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزني رحمه الله : اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن ادريس الشافعي رحمه الله ومن معنى قوله لأقربه على من اراده مع اعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط فيه لنفسه وبالله التوفيق »

ثم ماذا يريد المنتقد من حصره الانكار في تقليد الائمة الأربعة فيما فهموه

من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة ؟ هل يريد انه يجب تقليدهم فيما فسروا به القرآن وشرحوا به الحديث وأقوال الصحابة وعدم تقليدهم فيما اجتهدوا فيه الأحكام التي لم يصرحوا بأخذها من هذه المصادر الثلاثة ؟ إن كان يريد هذا وهو ظاهر عبارته الأولى فقد هدم معظم الفقه الذي يدين الجمهور بتقليده مخصوصاً فقهاء الحنفية والا فليدلنا على تفسير الامام أبي حنيفة القرآن وشرحه للأحاديث وأقوال الصحابة ليقلدها من يتبع رأيه الجديد ويترك ما عداها من مسائل الفقه المأخوذة بالقياس والاستحسان وان كان يقول بقول عامة المقلدين انه يجب تقليد ما في هذه الكتب من غير القيد بالالتفات الى مآخذها فما هو معنى العبارة الأولى ؟!

الموضوع طويل الأذيال واسع الأردان صنف العلماء فيه مصنفات كثيرة وأحسن ما رأيناه فيه هو ما كتبه الامام ابن القيم في كتابه (اعلام الموقعين) المطبوع في الهند ونقلنا كثيراً منه في الجزء السادس فهل المنتقد يقرأ ما كتبنا وما كتب هذا الامام وغيره في المسألة ثم يكتب بعد ذلك ما يظهر له أنه الحق ان كان طالباً له . وليعلم أن جماهير المسلمين قد أهملوا الاهتداء بالكتاب والسنة كما يعلم المنتقد ثم أهملوا هذا الفقه فقل فيهم من يتعلمه وقل في متعلميه من يعمل به حتى صار الاسلام عند الاكثرين جنسية لا هداية وقد أخذهم الله بذنوبهم وانا نعتقد اعتقاداً جازماً انه لا ترجى لهم هداية الا بدعوة الكتاب والسنة والرجوع بالدين الى ما كان عليه في عهد السلف ولا نرى حائلا دون هذا الا التقليد الذي صار على بطلانه في نفسه اسما بلا مسمى وهو مع ذلك لا يزيد المسلمين الا تفرقاً واختلافاً وضعفاً وهلاكا فنحن نحاول هدمه وندعو المسلمين كافة — لا المنتمين الى المذاهب الاربعة فقط — الى الاهتداء بما لا خلاف فيه بين أحد منهم لعلهم يرجعون ، وانا لا نجيز لأحد أن يقلدنا كما يتوهم المنتقد وغيره من الذين يتبعون فينا الظن وانما نحيل الجميع على الكتاب والسنة ومن قرأ كلامنا بانصاف عرف ذلك والله الموفق

كتب الناس من بلاد العرب أن الدولة العلية ظهر لها بعد رجوع العسكر ثم المفتشين من نجد إخلاص ابن سعود لها وما كان من كذب ابن الرشيد وغشه وارسل ابن سعود يطلب الاستانة وفداً الى السلطان مؤلفاً من صالح بن عذل وابراهيم بن عبد العزيز بن رافع وخدمهما وهم أربعة وانهم وصلوا الى البصرة فاكرمتهم الحكومة جداً وسافروا من ثم الى الأستانة . وأخيراً كتبت الدولة لابن سعود الظاهر انها تطلب منه فيه تأديب قاتلي أولاد ابن الرشيد ظلماً وعدواناً